الفصل الرابع

غزوات الچرمان وتأسيس ممالكهم فى غرب أوربا

الهـون : Huns

الهـن قبائل رحل من العنصر المغولى عرفوا فى أوطانهم الآسيوية باسم هسيـونج – هو Hsiung-Hu، وعاشوا فى أعالى النهر الأصفر (هوانج هو) شمـال ولاية كان – سو Kan-sou الصينية، ثم بدأوا التوسع والانتشار فى القرن الثانى قبل الميلاد، حتى وصل نفوذهم غرب بحيرة بلكاش فى القرن الأول الميلادى وتمكنوا من القضاء على امبراطورية الأورز Aorses الواقعة فى منطقة السهوب بين بحيرة آرال وجنوب جبال الأورال. وفى القرن الثانى أو الثالث سيطروا على شمالى الصين فيما يعرف حالياً بمنغوليا، وأسسوا امبراطورية لم تعش طويلاً[١]. والهون أقوام شديدو المراس، يقضى الرجال منهم حياتهم على ظهور الخيل فى أراض السهوب الآسيوية، رحل لا يعرفون للاستقرار معنى؛ وهم مكتنزو الأجسام، قصار القامة، كبار الرؤوس، قمحيو اللون، عيونهم مشقوقة مائلة، وأفواههم كبيرة، وشعرهم أسود صلب، لهم سحنة تثير الاشمئزاز، ويخفون تحت شكلهم الآدمى فظاعة الحيوان المتوحش. وتختلف ظروف حياتهم من فصل لآخر، ففى الشتاء تبلغ بهم المجاعة حدها بسبب الجفاف، فى حين تبلغ الوفرة الزائدة صيفاً. وقد نظر الرومان والجرمان جميعاً إلى قبائل الهون المتبربرة نظرة الرعب والفزع، نظراً لما اشتهروا به من السرعة الخارقة، والمبالغة فى أعدادهم مبالغة زائدة عن الحد. ويعزى إلى الهون اكتشاف حدوة الخيل وسروجها، وتتضح تلك الأهمية إذا أدركنا أن الحدوة سهلت على الخيل السير مسافات طويلة دون تعب، والسروج مكنت المحاربين من خوض المعارك وهم على ظهور خيولهم. هذا فى الوقت الذى لم يكن لدى الجرمان آنذاك سوى دراية قليلة بالفروسية، جعلتهم لا يستطيعون الصمود أمام قوات الهون. ويصف مؤرخ رومانى الهون بأنهم شياطين خفية، لا يقاتلون من على ظهور خيولهم فقط، بل يقضون حياتهم أيضاً على ظهورها، مما أدى إلى انحراف أقدامهم إلى الخارج

(١) Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 52-54.; Cantor, Mediaeval Hist.; p. 117.

وتقوس سيقانهم ولا يصيب (سمانة) الساق إلا حظ «ضئيل» من النمو. ووصل الأمر بالهون أنهم لا يترجلون عن خيولهم لتناول الطعام، بل يحتفظون بطعامهم المؤلف من اللحم تحت سروجهم، حتى لا يضيعون وقتاً خلال الزحف(١).

وقد بدأت قبائل الهون المتبربرة الظهور على مسرح الأحداث السياسية أواخر القرن الرابع الميلادى، عندما دفعتها من الوراء تحركات غامضة قامت بها قبائل الأورال – الطائية فى وسط آسيا، ربما بسبب زيادة أعدادها زيادة هائلة، أو نشوب صراع وحروب بينها، أو تغيرات مناخية أثرت تأثيراً بالغاً على حياة الهون الرعوية. على أية حال، شقت قبائل الهون طريقها إلى سهول روسيا الجنوبية (شمال البحر الأسود)(٢)، وهناك أدى ظهورها إلى إثارة الفوضى والقلاقل، ونشر الفزع والرعب وسط الجماعات الجرمانية المستقرة من قبل. وكان القوط الشرقيون أول تلك الجماعات التى لم تستطع مقاومة جحافل الهون عندما انقضت عليها فى أوكرانيا فى عام ٣٧٥م(٣)، مما أدى إلى تحطيم مملكتهم وفرار فلولهم نحو الغرب ولم يلبث الهون أن زحفوا غرباً إلى أوربا الوسطى، ناشرين التدمير والخراب في المناطق التى يمرون بها، وكان ضغطهم هو المحرك الفعال لتدفق الجرمان على حدود الأمبراطورية فى الجزء الغربى منها. أما الشعوب الجرمانية التى عجزت عن الوقوف أمام وحشية الهون أثناء زحفهم العاصف، فقد أرغمت على الانضمام إليهم، والوقوع تحت وطأتهم وسيطرتهم، ومن تلك الشعوب الجيبيداى Gipidae والآلان Alans والقوط والصقالبة وغيرهم. وهكذا نرى أن الهون عندما أوقفوا زحفهم إبان القرن الخامس كانوا قد شيدوا امبراطورية ضخمة، جعلوا مقرها فى سهل هنغاريا (المجر)؛ ومن المعروف أن تلك

---

(١) Stephenson, Mediaeval Hist., p. 48; Sellery & Krey, Medieval Foundations., p. 9; Cantor, op. cit., p. 9.;

موس، ميلاد العصور الوسطى، ص ٩٣ – ٩٥.

(٢) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 61.

(٣) Katz, The Decline of Rome., p. 104.

الأمبراطورية قد بلغت أوج عظمتها عندما توحدت تحت زعامة أتيلا، الذى ورث الحكم سنة ٤٣٣م، وفى عهده بلغ بلاط الهون منزلة عالية من الثراء الفاحش، بهرت عيون السفراء الوافدين من روما أو القسطنطينية، وتركت أثراً عميقاً فى نفوسهم(١).

فرض أتيلا نفوذه وسطوته على القبائل الجرمانية والمتبربرة التى قادها مصيرها إلى الوقوف فى طريقه، وتسابق الحكام على إرضائه بتقديم الهبات المالية والهدايا القيمة خوفاً من جبروته. واستطاع أتيلا بفضل موقعه المتوسط أن يهدد شطرى الأمبراطورية الشرقى والغربى، وبلغ به الأمر أن دأب على مطالبة الأمبراطورية بإعادة الفارين إليها، وإرغامها صاغرة على دفع جزية سنوية له(٢). وكان من الممكن أن تستقر العلاقة بينه وبين الأمبراطور على هذا النحو، غير أنها ما لبثت أن توترت عندما طالبها برفع قيمة الجزية، فرفضت الإذعان له، وجرى تدبير مؤامرة فى بلاط القسطنطينية للتخلص منه باغتياله، اشترك فى نسج خيوطها الأمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م)، ولكنه كشف النقاب عنها فى اللحظات الأخيرة؛ وقد سخر أتيلا من تلك المؤامرة قائلاً باختصار: «إن عبده ثيودوسيوس (الثانى) الذى دأب على دفع الجزية له، حدثته نفسه بالتآمر على قتل سيده»(٣).

لم يكتف أتيلا بما تحت يده من أمبراطورية شاسعة، وبما فرضه من سيادة على العديد من القبائل الجرمانية والمتبربرة، بل امتدت أطماعه إلى أراضى الأمبراطور الرومانى، ومن ثم عول على تقويض الأمبراطورية ونهب ممتلكاتها. وبداية اجتذب الجزء الشرقى من الأمبراطورية أنظاره، فاجتاح شبه جزيرة البلقان. ووصلت غاراته المدمرة إلى أبواب القسطنطينية، وعندئذ تحرج الموقف

---

(١) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 67.

(٢) Jones, The Decline of Ancient World., p. 80.

(٣) Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 67.

عندما رفض الأمبراطور مرقيان (٤٥٠ – ٤٥٧م) Marcian الإذعان لآتيلا، والرضوخ لإرادته، وازداد الموقف تعقيداً عندما أعلن امتناعه عن دفع الجزية. وشاء حظ القسطنطينية أن يحول آتيلا وجهته صوب غرب أوربا، فانصرف من أمام أسوارها، تسبقه شهرته التى طبقت الآفاق، بما عرفت به من قسوة ووحشية لا تبقى ولا تذر، حتى أن معاصريه اعتقدوا أنه سلاح لا يقهر، وأطلق عليه آنذاك «سوط الله» The Scourge of God، أى «العقاب الذى سلطه الله على الخطاة»، وكان أن عبر نهر الراين، وتوغل فى شمالى بلاد الغال[١]. ووسط تلك الظروف ظهر القائد الرومانى القدير أئتيوس Aétius لمواجهة آتيلا ومنعه من التقدم أبعد من ذلك. وحمله الخطر الهونى على جمع القوات الرومانية الرابضة فى الغرب الأوربى، وأضاف إليها الجموع الجرمانية فى بلاد الغال التى بادلت آتيلا العداء والكراهية. والجدير بالذكر هنا أن خطة آتيلا الحربية كانت تقوم على تجنب الاشتباك مع عدوه – قدر الإمكان – فى معركة وجهاً لوجه، فما حققه من انتصارات اعتمدت بالدرجة الأولى على سرعة التنقل والحركة من ناحية، ونشر الفزع فى قلوب أعدائه من ناحية أخرى. ولا يغيب عن البال أن الالتحام فى المعارك يقتضى مهارة وقيادة يقظة وتكتيكاً بارعاً، وهى صفات يفتقر إليها آتيلا. ومهما يكن من أمر، فقد أسقط فى يد آتيلا، ووجد نفسه مرغماً على خوض معركة – وجهاً لوجه – ضد أئتيوس وحلفائه من الجرمان بالقرب من سهول شالون Châlone على نهر السين الأعلى. وفى تلك المعركة التى حدثت فى عام ٤٥١م هزم آتيلا هزيمة ساحقة، اضطرته للارتداد شمالا، مخلفا وراءه أكواما من الجرحى وأشلاء من القتلى. وقد أطلق على تلك المعركة التى أسفرت عن فشل آتيلا فى الاستيلاء على بلاد الغال «معركة الشعوب» The Battle of the Nations نظراً لأن شعوباً جرمانية مختلفة اشتركت فيها. فقد ضم جيش آتيلا الألطائية، والجيبيداى، والقوط الشرقيين، والسكيرى Sciri، والهيرولى، والبرجنديين الشماليين، والفرنجة البريين؛ أما جيش أئتيوس فقد تألف من القوات

---

(١) Loc Cite.

الرومانية، والبريتون Bretons، والآلان، والسكسون، والقوط الغربيين، والأرموريك Armoricans، والبرجنديين الجنوبيين، والفرنجة البحريين. ومن المشاهد أن القوط الغربيين لعبوا دوراً بارزاً فى تلك المعركة الحاسمة، حتى أن ملكهم ثيودوريك لقى مصرعه بعد أن حارب ببسالة منقطعة النظير تحت راية الرومان. وصفوة القول أن معركة شالون أنهت الأسطورة التى زعمت أن الهون قوم لايغلبون من جهة، وأن آتيلا سلاح لا يقهر من جهة أخرى(١).

وفى ربيع العام التالى (٤٥٢م) تحرك آتيلا على رأس جيش ضخم، فقام بعبور جبال الإلب، ثم غزا شمال إيطاليا، فسقطت أكويليا Aquilia في يده بعد أن أحكم حولها حصاراً عنيفاً، اضطر أهلها إلى الفرار بجلدهم إلى المستنقعات الكائنة فى الجزر الواقعة على رأس البحر الأدرياتى، حيث أسسوا قرى صارت فيما بعد مدينة البندقية الشهيرة. ومضى آتيلا فى تقدمه، فسقطت فى يده مدينتا ميلان وبافيا دون مقاومة، ثم تقدم إلى روما، ولكن انتشار المجاعة وتفشى الأوبئة بين قواته، جعلته يوقف هجومه عليها. ومن الملاحظ أنه فى غمرة المتاعب التى قابلت آتيلا، وصلت إلى معسكره سفارة من روما على رأسها البابا ليو الأول (٤٤٠-٤٦١م)، لإقناع آتيلا أن اقتحام روما سوف لا يحقق له الغاية المنشودة، وفعلاً دارت المفاوضات بين الجانبين، انتهت إلى انسحاب آتيلا عائداً إلى مقر حكمه فى هنغاريا يجر أذيال الفشل والخيبة. وتروى الأساطير أن شبحى القديسين بطرس وبولس ظهرا الزعيم الهون، وهدداه بالموت السريع إذا خذل البابا. ولاشك أن ذلك الاعتقاد أضاف رصيداً ضخماً من النفوذ لحساب البابوية فى الغرب الأوربى. وشاءت الأقدار أن يموت آتيلا بعد شهور قليلة فى عام ٤٥٣م، فى ليلة زفافه على عروسه الأميرة الجرمانية الجميلة كريمهيلد Kriemhild كما تسمى فى ملحمة نيبيلونج Nibelungenlied التى وصلتنا فى مخطوطة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادى، فبعد أن أفرط فى الشراب حتى فقد

(١) Pirenne, A Hist. of Europe., pp. 29 - 30.; Taylor, The Mediaeval Mind. Vol. I., pp. 112 - 113.; Jones, op. cit., p. 80.

الوعى، وغلبه النوم، نزفت أنفه وهو يغط فى نومه دماء كتمت أنفاسه، بعد أن اندفعت إلى رئتيه ومعدته[١]. وعلى أية حال، فقد تمزقت أمبراطورية الهون بعد وفاة دعامتها القوية آتيلا، ذلك أن أبناءه الذين اقتسموا ميراثه سرعان ما دب النزاع بينهم حول سيادة الشعوب الجرمانية التى كانت تدين بالولاء لأبيهم، مثل القوط الشرقيين، والجيبيداى والروجيين، والهيرولى، والسكيرى؛ ولكن تلك الشعوب أحست بمدى الضعف الذى وصل إليه الهون، فثارت، وانقضت على الأبناء فى موقعة جرت أحداثها على نهر نيداو فى نفس العام (٤٥٣م)، باءت بهزيمتهم هزيمة ساحقة، حتى لم يبق منهم غير شراذم متناثرة، وقد استقرت تلك الشعوب فى الولايات الدانوبية، سواء كقوى مستقلة أو كحلفاء للأمبراطورية الغربية[٢]. وهكذا انهارت امبراطورية الهون، وكسرت شوكتها، ومحيت من صفحات التاريخ.

القوط الغربيون : Visigoths

يبدو من خلال أساطير القوط أنهم عبروا البحر البلطى من جنوب شبه جزيرة اسكندناوه فى القرن السادس قبل الميلاد، حتى وصلوا مصب نهر الفستولا Vistula؛ وحوالى سنة ٢٥٠ق.م ظهروا تاريخياً عندما شرعت بعض القبائل القوطية فى التحرك صوب الجنوب الشرقى، إلى أعلى الفستولا خلال مستنقعات البريبت Pripet، حتى استقرت فى النهاية فى حوض الدنيبر الأدنى والساحل الشمالى للبحر الأسود[٣]. وهناك انقسم القوط إلى فرعين قبليين كبيرين هما : القوط الترفنج Tervingi والقوط الجروتنج Greutungi. وقد استقر فرع الترفنج بين الدانوب والدنيستر، وعرف فيما بعد باسم القوط الغربيين

(١) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 68.;
جيبون، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ ٢، ص ٢٨٨ – ٢٩٠.

(٢) Baker (Ernest), "Italy & the west, 410 - 476.", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 420.

(٣) Copeland, The Germanic Invaders., p. 2212.; Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 26.

Visigoths؛ أما الفرع الآخر الجروتنج فقد أقام فى جنوب روسيا على نهر الدنيبر، وعرف فيما بعد باسم القوط الشرقيين Ostrogoths. وتجدر الإشارة إلى أن خط التمييز الجغرافى بين القوط الغربيين والقوط الشرقيين ظل واحداً، حتى بعد أن تكونت ممالك القوط فيما بعد، فكان القوط الغربيون فى تولوز، بينما كان القوط الشرقيون فى إيطاليا شرقيهم(١).

وقد ظهر خطر القوط واضحاً فى منتصف القرن الثالث الميلادى، عندما اشتدت إغاراتهم البربرية على ولايات الجزء الشرقى من الأمبراطور، فاجتاحوا إقليم مؤيسيا السفلى، ثم فرضوا الحصار على مرقيانو بوليس Marcianopolis (بالقرب من ڤرنا) عاصمة الإقليم، غير أنهم مالبثوا أن فكوا الحصار عن تلك المدينة بعد أن دفع السكان مبلغاً ضخماً من المال، ثم قفلوا عائدين إلى بلادهم. وإبان عهد الأمبراطور ديكيوس (٢٤٩ – ٢٥١م) Decius، عبر القوط الدانوب الأدنى، واجتاحوا تراقيا ومقدونيا، وظلوا ينشرون الدمار والخراب، حتى وجد ديكيوس نفسه مضطراً لمواجهتهم خلال زحفهم على مدينة فيلبو بوليس Philip-popolis (عاصمة تراقيا)، ولكنه لقى الهزيمة رغم شجاعته ونشاطه، والحق أن تلك الهزيمة لم تنل من عزيمة الأمبراطور، فما لبث أن جمع قواته المبعثرة، وشرع فى إنقاذ المدينة من الحصار الذى فرضه عليها القوط. وفعلاً تغير الموقف بعد أن طال أمد الحصار، فقد قاسى القوط عناء الانتظار تحت أسوار المدينة، وخاب أملهم فى الاستيلاء عليها، وأسقط فى يدهم، فراسلوا ديكيوس يعرضون عليه تسليم الأسرى وإعادة الغنائم، بشرط أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم سالمين.

---

(١) Bradley (Henry), The Goths. Fifth edition., (London, 1887), pp. 5-6.; Bang, "Expansion of the Teutons.", p. 203.

وثمة تفسير أضافه البعض حول تقسيم القوط إلى شرقيين وغربيين، ففرع القوط الترفنج الذى عرف فيما بعد باسم Visigoths يعنى القوط الحكماء Wise Goths وليس كما ترجمت عادة القوط الغربيون (Western Goths)؛ أما الفرع الآخر الجروتنج الذى عرف فيما بعد باسم Os-trogoths فمعناه القوط الساطعون (Austr) "bright Goths" وليس كما عرف القوط الشرقيون (Eastern Goths). انظر:

Lot, The End of the Arcient World., p. 191.

ولكن الامبراطور رفض ذلك العرض، إعتقاداً منه أن القضاء عليهم بات أمراً ميسوراً، وبذلك ارتكب خطأ لا يمكن تلافيه، إذ نسى أن القوط يدافعون هذه المرة عن طوق نجاتهم، أو بالأحرى يدافعون عن حياتهم دفاع المستميت، الأمر الذى أرغمهم على خوض معركة عنيفة فى عام ٢٥١م، كلفت الأمبراطور وابنه حياتهما. وبعد أن كانوا يطلبون طوق النجاة، إذا بهم قد استولوا على الولايات الدانوبية بعد أن عجزت القوات الرومانية عن ردهم. وقد انعكست هذه الهزيمة على موقف جالوس (٢٥١ – ٢٥٢م) عندما اعتلى عرش الامبراطورية، ذلك أنه أحسن بعجزه عن مواجهة القوط، وعدم قدرته على طردهم بالقوة، خاصة بسبب الطاعون الذى اجتاح ولايات الدانوب، فاتفق معهم على مغادرة أراضى الامبراطورية نظير دفع جزية ضخمة سنوياً(١).

وهنا نلاحظ أن القوط ظلوا سادرين فى غيهم، فواصلوا إغاراتهم على أملاك الأمبراطورية، وقد ساعدتهم أحوال الأمبراطورية على ذلك، فبين سنتى ٢٥٣ و٢٦٨م هدد الچرمان الجزء الغربى من الأمبراطورية، فى الوقت الذى واجهت فيه المتاعب مع فارس. ومما يذكر أن تاريخ القوط خلال تلك الفترة كان مليئاً بالفظائع ونشر الرعب والفزع، بالإضافة إلى نهب المدن الغنية التى تعرضت لغزوات ضارية. وأخيراً فى عام ٢٦٩م نشأ تحالف قوى بين القوط وجماعات من الچرمان مثل الجيبيداى والهيرولى وغيرهم، استهدف مهاجمة أملاك الأمبراطورية بحراً، وفعلاً أبحر أسطول مؤلف من خمسمائة سفينة من الساحل الغربى للبحر الأسود، وصل الساحل الغربى لآسيا الصغرى، ثم عبر البحر الإيجى متجهاً إلى بلاد اليونان، وكانت المدينة العريقة أثينا من بين المدن التى تعرضت لنهب القوط، ثم توجه الأسطول إلى البحر الأدرياتى، إذ يبدو أن القوط كانوا يفكرون فى غزو إيطاليا. ولكن النزاع الذى شب بين زعماء البرابرة أدى إلى انقسام الجيش القوطى إلى جماعتين، إحداها عادت إلى موطنها الأول شمال البحر الأسود،

(١) Bradley, The Goths., pp. 24-29.; Rostovtzeff (M.), The Social and Economic Hist., of the Roman Empire., Vol. I., (London, 1957), pp. 442-443.; Cary & Scullard, A Hist. of Rome., p. 508.

واتجهت الأخرى إلى إقليم مؤيسيا قاصدة غزوه، وفعلاً سقط فريسة فى أيديها. وفى تلك الأثناء كان كلوديوس الثانى (٢٦٨ - ٢٧٠م) Claudius II قد وصل إلى عرش الأمبراطورية، وعقد العزم على تطهير الأمبراطورية من البرابرة الغزاة، فخرج لملاقاتهم على رأس جيوشه. والتقى الفريقان عند نيسوس (نيس) Nais-sus فى معركة دامية حدثت فى عام ٢٧٠م، وأسفرت عن هزيمة القوط هزيمة ساحقة، راح ضحيتها خمسون ألف قوطى، فضلاً عن ألوف عديدة أخرى وقعت فى ذل الاسترقاق، أما باقى القوط فقد ارتدوا إلى شمال الدانوب، ثم توالت انتصارات كلوديوس الثانى على القوط، لدرجة أفقدتهم الثقة فى أنفسهم، وذاع صيت كلوديوس الثانى بأنه قاهر القوط، واستحق عن جدارة لقب «القوطى» Gothicus الذى عرف به فى التاريخ[١]. وبعد أن توفى كلوديوس الثانى بمرض الطاعون، خلفه أوريليان (٢٧٠ - ٢٧٥) على عرش الأمبراطورية، وفى بداية عهده عاد القوط لمهاجمة أراضى الأمبراطورية، واشتبكوا مع الأمبراطور فى معركة لم يتحدد مصيرها، ولكنها كلفت الجانبين الكثير من الخسائر، مما أدى إلى اتفاقهما على الصلح. وكان أن رأى الأمبراطور أن احتفاظه بولاية داكيا سوف يجلب المتاعب للأمبراطورية، فضلاً عن صعوبة الاحتفاظ بها آنذاك، ولذلك أمر بسحب الحاميات الرومانية من تلك الولاية، وإخلائها من السكان الرومان، ثم تسليمها للقوط للإقامة بها؛ وهكذا صارت أحدث ولاية ضمتها الأمبراطورية إلى نفوذها، أول ولاية تفرط فيها للجرمان!. ورغم أن أوريليان قد حل مشكلة داكيا على حساب الأمبراطورية، إلا أنه فى الواقع أبعد الخطر القوطى عن أملاكه مدة خمسين سنة. ومنذ ذلك الوقت صار جنوب الدانوب الحد الشمالى للأمبراطورية، كما كان الوضع فى أيام الأمبراطورية الأولى[٢].

---

(١) Bradley, the Goths., pp. 30., Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 35-36.; Rostovtzeff, op. cit., Vol. I, pp. 445-446.; Cary & Scullard., op. cit., p. 513.; Bang, op. cit., p. 205.

(٢) Robinson, A Hist. of Rome., pp. 397-398.; Tailor, op. cit., pp. 111-112.

جنح القوط إلى الهدوء خلال فترة الخمسين عاماً التى أعقبت قيام الصلح بينهم وبين الأمبراطورية، بدليل أن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئاً عن أحداثهم إبان تلك الفترة. وعلى أية حال، فقد خرجوا عن هدوئهم الطويل على عهد قنسطنطين العظيم، فحدث أول صدام بينه وبينهم فى عام ٣٢٢م، استطاع خلاله أن يحقق النصر عليهم فى ثلاث معارك متتالية، أجبرتهم على الخضوع له، ثم بعد ذلك بثمانى سنوات (٣٣٠م) اشتبك معهم فى حرب أسفرت عن هزيمتهم هزيمة فادحة؛ وهنا نلاحظ أن قنسطنطين عامل أولئك البرابرة بعدئذ معاملة طيبة، فعقد معهم معاهدة صاروا بمقتضاها حلفاء (Foederati (allies للرومان، وجرى الاتفاق أيضاً على أن يسلم الملك القوطى ابنه الأكبر رهينة فى أيدى الأمبراطور، إعراباً عن إخلاصه وصدق ولائه(١).

ثم حدث الحدث الأعظم فى تاريخ القوط عندما شقت المسيحية طريقها إليهم فى منتصف القرن الرابع، عن طريق المبشر القوطى الآريوسى المذهب أولفلاس (٣١١ – ٣٨١) Ulfilas، الذى لقنهم الدين الجديد على المذهب الآريوسى، مخالفاً المذهب الأثناسيوسى المنتشر فى الغرب الأوربى، الأمر الذى كان له عواقب بعيدة المدى على مستقبل قبائل القوط الغربيين والشرقيين والوندال والبرجنديين واللومبارديين وغيرهم. وكان أولفلاس قد أتى إلى منطقة شمال الدانوب، بعد أن قرر مجمع أنطاكية فى حوالى عام ٣٤٠م برئاسة أيوزيب المناهض للمذهب الأثناسيوسى، تعيينه أسقفاً ومبشراً بين القوط. وقد انصرفت همة أولفلاس إلى القيام بمهمته خير قيام. ويعزى إليه الفضل فى ترجمة الإنجيل إلى لغة القوط الذين لم تكن لهم دراية بالكتابة آنذاك، ولهذا نراه قد استعار الحروف اليونانية للتعبير عن الأصوات الجرمانية، واضعاً بذلك أساس الكتابة عند الجرمان، وبلغت شهرته فى التبشير حداً جعلته يعرف باسم حوارى القوط أو رسولهم Apostle of the Goths(٢).

---

(١) Bradley, The Goths., pp. 38 - 41.

(٢) Lot, op. cit., p. 38; Pirenne, op. cit., p. 25.; Taylor, op. cit., p. 112.; Thompson, Hist. of the Middle Ages., p. 54., Bang, op. cit., Vol. I., p. 312., Previté - Orton (C.W.), The Shorter camb. Med. Hist., Vol. I., (Camb., 1971), pp. 56-57.

وحوالى عام ٣٧٠م ظهر خطر الهون الذى زلزل الأرض بشدة تحت أقدام الشعوب المتبربرة، بما فيها القوط. وبداية خرجت جموع الهون من مواطنها الأصلية فى شكل إعصار مدمر، انقض على قبائل الآلان الجرمانية فى المنطقة الواقعة بين القوقاز والدون، فاجتاحها؛ وبعد ذلك بخمس سنوات (٣٧٥م) تعرض القوط الشرقيون فى جنوب روسيا لهجوم الهون، فلم يقدروا على درئه، وما لبثت مقاومتهم أن انهارت، وهزموا شر هزيمة، انقسموا على أثرها إلى قسمين : قسم يمثل الغالبية انضوى تحت سيادة الهون، ولذلك عوملوا معاملة طيبة، أما القسم الآخر فقد اتجه إلى الدنيستر، ثم إلى الدانوب، حيث انضموا إلى إخوتهم القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم إلى هناك[١]. ولكن القوط الغربيين بعد الكارثة التى ألمت بإخوتهم القوط الشرقيين خشوا أن يقعوا فريسة فى أيدى الهون، فاضطروا إلى التقهقر نحو الغرب. وفعلاً كانت جحافل الهوية لهم بالمرصاد، إذ لم تلبث أن ضغطت عليهم، فأسقط فى أيدى القوط الغربيين، لاسيما بعد أن تصوروا جسامة الفظائع التى ستنالهم إذا أمسكت بهم قبائل الهون، وتلفتوا حولهم فلم يجدوا خلاصهم إلا فى أراضى الأمبراطورية، فالتمسوا الإذن من الامبراطور ڤالنز (٣٦٤ – ٣٧٨) Valens بالسماح لهم بعبور نهر الدانوب. وكان الأمبراطور مشغولاً آنذاك بمشاريعه الحربية ضد الفرس، فوافق على عبورهم الدانوب فى ربيع عام ٣٧٦م، على شرط أن يصيروا حلفاء للأمبراطورية، يلتزمون بالدفاع عن حدودها مقابل إمدادهم بالمؤن. ولسنا فى حاجة إلى تصور الأعداد الهائلة من القوط الغربيين المهاجرين – أطفالاً ونساء ورجالاً وشيوخاً – الذين عبروا نهر الدانوب، فقد ازدحم مجراه بالسفن ازدحاماً خانقاً، مما أدى إلى غرق البعض منها. وهنا نلاحظ أن الرومان حاولوا إحصاء عدد اللاجئين، ولكن أعدادهم الغفيرة حالت دون إتمام هذه المهمة[٢]. ثم إن إيواءهم ليس أمراً سهلاً كما نتخيل، بل هو أمر لابد أن يثير المتاعب والقلاقل، من حيث ندرة المؤن

---

(١) Lot, op. cit., pp. 58 - 59.

(٢) Bradley, op. cit., p. 66.; Previté - Orton, op. cit., Vol. I., p. 57.

والأقوات آنذاك، واحداث الفوضى والاخلال بالأمن والنظام، علاوة على ما تعرض له أولئك اللاجئون من تعنت الموظفين الرومان وسوء معاملتهم، كل ذلك دفع القوط الغربيين إلى مخالفة ما عاهدوا الأمبراطورية عليه، وأعلنوا الثورة عليها(١). وبدأ القوط ثورتهم فى عام ٣٧٧م بأن عبروا جبال البلقان، ثم انقضوا على تراقيا من بلاد اليونان الحالية، فسقطت فى أيديهم، بعد أن عجز قائد القوات الرومانية عن صدهم، واضطرته الهزيمة للفرار إلى مدينة مرقيانوبوليس. وفى تلك الأثناء كان الأمبراطور غائباً عن عاصمته فى آسيا، فلما علم بالاضطرابات التى أحدثها القوط الغربيون فى أراضى الدانوب، رجع إلى عاصمته فوصلها فى ٣٠ مايو ٣٧٨م. وفى خلال ذلك الوقت أيضاً كان جراتيان Gratian زميل الأمبراطور فى الغرب الأوربى – وهو فى نفس الوقت ابن أخيه – قد هزم الجرمان على جبهة الراين، واستطاع إعادة الهدوء إليها. وما لبث جراتيان بعد أن فرغ من مهمته أن وجه جهوده إلى العمل على إزالة الكارثة التى لحقت بالرومان فى منطقة الدانوب، وحتى يحقق ذلك أسرع بالهبوط إلى تلك المنطقة، فوصل سرميوم عاصمة إقليم إيلليريا، وهناك أرسل إلى عمه الأمبراطور يطلب منه ألا يجازف بقواته قبل وصوله، للاشتراك معاً – بقواتهما – فى عمل حربى من شأنه أن يحقق النصر على أعدائه. ولكن المتملقين المحيطين بالأمبراطور أوعزوا له ألا ينتظر وصول ابن أخيه حتى لا يشاركه فرحة النصر ويجمع الأضواء حوله، وأكدوا له ثقتهم الزائدة فى مقدرته وكفاءته. وكان أن زحف الأمبراطور على رأس قواته البالغ عددها عشرة آلاف محارب فى ٩ أغسطس سنة ٣٧٨، وعلى مقربة من أدرنة (أدريانوبل) Hadrianople فى إقليم تراقيا، دار قتال عنيف بين الفريقين، انتهى بسحق القوات الرومانية وإبادتها، ولقى الأمبراطور مصرعه(٢) نتيجة طيشه واندفاعه. وتجدر الإشارة إلى أن استخدام القوط الغربيين للخيالة الثقيلة فى تلك

---

(١) Pirenne, op. cit., pp. 26 - 27.; Hoyt & Chodorow, op. cit.., p. 61.

(٢) Jones, op. cit., pp. 67 - 68.; Bradley, op. cit., pp. 67 - 73.; Baynes (Norman H.), "The Dynasty of Valentinian and Theodosius." in Camb. Med. Hist., Vol. I., p. 231.

المعركة ساهم فى تحقيق الانتصار، وصارت الخيالة الثقيلة وفنونها العسكرية منذئذ هى العامل الحاسم فى المعارك، وقضت أن تكون لمدة ألف سنة هى الأداة الفعالة فى الحروب الأوربية[١]، وبعبارة أخرى لم يعد للجنود المشاة السيطرة بعد ذلك على ميدان المعركة.

وإزاء تلك الكارثة التى ألمت بالأمبراطورية، توقف المؤرخ أميانوس مارسللينوس (٣٢٥ – ٣٩١م) عن ذكر أية تفاصيل عنها، إذ أن مارواه عنها جاء غامضاً؛ أما المؤرخ الانجليزى جيبون Gibbon فقد كان أحد الأوائل الذين رأوا فى معركة أدريانوبل نقطة تحول فى التاريخ[٢]. أما المؤرخ برادلى[٣] Bradley فقد ذكر أن القوط لو كانوا قد توحدوا ونظموا صفوفهم وعرفوا كيف يستغلون ما أحرزوه من نصر، لكان من المحتمل أن تنساق الأمبراطورية الشرقية إلى نهاية سريعة، ولكن فن الغزو الذى ألفوه كان ينقصه الكثير. ويشير المؤرخ كانتور[٤] Cantor إلى أن هذه المعركة أظهرت أن بمقدور أية قبيلة جرمانية أن تهزم جيشاً رومانياً، وكانت هذه الحقيقة المشئومة بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية.

وكان من حسن حظ الأمبراطورية أن يرتقى عرشها ثيودوسيوس العظيم (٣٧٨ – ٣٩٥م)، الذى بعث الثقة فى قلوب جنده، ورفع من روحهم المعنوية بعد كارثة أدريانوبل. وبفضل مهارته وحكمته ودبلوماسيته، أمكن تحويل القوط الغربيين، بأن عقد معهم اتفاقية فى ٣ أكتوبر عام ٣٨٢م، بعد مفاوضات دامت أربع سنين، صاروا بمقتضاها معاهدين Foederati ومنحهم أرضاً لإقامتهم فى إقليمى مؤيسيا وتراقيا، فضلاً عن منطقة بانونيا؛ ومن الممكن القول أن تلك

(١) Sinnigen & Boak, op. cit., p. 426.; Bang, op. cit., pp. 215-217.;
موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٥.

(٢) Lot, op. cit., p. 61.

(٣) The Goths., p. 75.

(٤) تاريخ العصور الوسطى، قصة حياة حضارة ونهايتها، ص ٢٢٠.

الاتفاقية كانت في صالح الأمبراطورية، ففضلاً عما أكدته من سلام في أراضي الدانوب، تعهد القوط الغربيون بتقديم عون حربي للأمبراطورية كل عام[١].

توفي ثيودوسيوس العظيم في ١٧ يناير سنة ٣٩٥م وهو في سن الخمسين، بعد أن استطاع – قدر جهده – الحفاظ على الأمبراطورية في فترة من أحلك الفترات التي مرت بها، ولذلك عرف في التاريخ بأنه آخر الأباطرة الرومان العظام. وبعد موته تغيرت الأوضاع في الأمبراطورية بشكل لم تألفه من قبل. ويتضح ذلك في ازدياد شأن القواد الجرمان، فبعد أن كانوا في قبضة ذلك الأمبراطور العظيم، صار بوسعهم التحكم في مصائر الأباطرة[٢]. كما أن الأمبراطورية قد قسمت بين ولديه، فكان القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية من نصيب أركاديوس (٣٩٥ – ٤٠٨) Arcadius، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره؛ والقسم الغربي وعاصمته راڤنا بشمال إيطاليا من نصيب هونوريوس (٣٩٥ – ٤٢٣) Honorius، وهو شاب في الحادية عشرة من عمره. ومن الملاحظ أن ولدي ثيودوسيوس أحاطت بكل منهما حاشية فاسدة ضعيفة، افتقرت إلى الصفات التي تؤهلها لمواجهة متاعب الأمبراطورية، أضف إلى ذلك أن الأخوين لم يعتمدا في ممارسة نفوذهما على مهارتهما الشخصية، بل سلما زمام أمورهما لشخصيتين جاوزتا الحد المتاح لهما. فقد اعتمد هونوريوس في الغرب على قائد وندالي قدير هو ستليكو Stilicho، في حين اعتمد أركاديوس في الشرق على روفينوس Rufinus، وهو وزير قوطي عرف بالقسوة، استطاع أن يجعل مقاليد الأمور في يده وصاحب انقسام الأمبراطورية إلى شطرين تحول خطير في السياسة الرومانية – الجرمانية، ذلك أن أباطرة القسم الشرقي عمدوا إلى حل المشكلة الجرمانية على حساب القسم الغربي، غافلين وحدة الأمبراطورية كأن لم يعد لها وجود، مما جعل عام ٣٩٥م يمثل بداية الانهيار الرسمي للأمبراطورية في

---

(١) Lot, op. cit., pp. 61 - 62; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 61.

(٢) Cantor, op. cit., pp. 117-118.

الغرب[١]. ومن الآثار التى تمخضت عن انقسام الأمبراطورية ظهور فوارق فى التشريعات والقوانين، بحيث صار كل قسم مختلفاً عن الآخر اختلافاً واضحاً، ورغم ذلك لم يعترف المعاصرون بأى تقسيم رسمى فى الأمبراطورية، إذ ظلت فى نظرهم تمثل وحدة لا ينفصم عراها.

وفى تلك الأثناء اختار القوط الغربيون ألاريك Alaric ملكاً عليهم، وهو شاب فى العشرين من عمره من بيت بالثى Balthi القوطى العريق، والذى معناه «الشجعان». وقد عمد ألاريك إلى الانخراط فى سلك الجيش الرومانى، شأنه فى ذلك شأن الكثير من زعماء الجرمان، أملاً فى الوصول إلى مركز هام فى الأمبراطورية، ولكن فشله فى تحقيق غايته، جعله يخرج على شروط المعاهدين، ويعادى الأمبراطورية[٢]. ويرى البعض أن ألاريك لم يكن فى نيته بادىء ذى بدء تدمير الأمبراطورية والقضاء على حضارتها، أو تفتيت النفوذ الأمبراطورى فى أراضى الدانوب. فكل ما كان يبتغيه هو الحصول على أقاليم خصيبة واسعة لشعبه للاقامة فيها، وكان من المحتمل تجنب الأمبراطورية المتاعب التى أحاطت بها، والتى كان لها أثرها في تحطيم نفوذها فى الجزء الغربى، لو أن الأمبراطور الشرقى بادر بتحقيق طلباته المتواضعة، ولكن الأمبراطور قصير النظر رفض الاستجابة لمطالبه فى عناد وإصرار، الأمر الذى أثار ألاريك، ودفعه بالتالى إلى محاربة الأمبراطورية[٣].

خرج ألاريك من مؤيسيا على رأس قومه متجهاً إلى القسطنطينية مستهدفاً تحقيق أطماعه، فنهب مقدونيا وتساليا فى طريقه، ثم دخل بلاد اليونان، وأخذ يحرق المدن، ويسترق الأهالى، حتى وصل أثينا، فلم يتعرض لها بسوء بعد أن دفع الأهالى له مبلغاً ضخماً من المال، ولكن مدناً أخرى عريقة مثل كورنثه

---

(١) إبراهيم العدوى : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، ص ٦٢ – ٦٣.

(٢) Bradley, the Goths., p. 85.;

موس، ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٥.

(٣) Cantor, op. cit., p. 118.; Simons, The Birth of Europe., pp. 36-37.

وميجارا وأسبرطة لم تسلم من أعمال النهب والسلب. وعندما وجد أركاديوس صاحب القسم الشرقى من الأمبراطورية نفسه فى موقف صعب لا يحسد عليه، خرج روفينوس من القسطنطينية فى مارس سنة ٣٩٥م، وأجرى مفاوضات مع الزعيم القوطى، حصل الأخير بمقتضاها على مبلغ من المال، فضلاً عن تعيينه قائداً أعلى لجيوش إقليم إيلليريا(١). غير أن ذلك الإقليم لم يحقق الأطماع التى كانت تجيش فى صدر ألاريك من ناحية، ولم يكن كل ما يأمله من القسطنطينية من ناحية أخرى. ولذلك رأى أن يوجه أنظاره نحو الغرب لغزو إيطاليا سنة ٤٠٠م. فعبر جبال الألب فى العام التالى (٤٠١م)، وواصل تقدمه بلا هوادة فى شمال إيطاليا، حتى عسكر بقواته أمام ميلانو، وعندئذ جمع هونوريوس صاحب القسم الغربى من الأمبراطورية كل قواته خشية وقوع إيطاليا فى أيدى ألاريك، وزاد على ذلك أن أعاد تحصين أسوار روما توقعاً لأى هجوم يشن عليها، ثم ما لبث أن استدعى القائد الرومانى ستليكو من الغال لإدارة العمليات الحربية. واستطاع ذلك القائد مباغتة معسكر ألاريك بالقرب من بولانزو Pollanzo أثناء انشغاله – مع قومه – بالاحتفال بعيد الفصح (١٩ مارس سنة ٤٠٢م)، مما أدى إلى شل حركتهم وفقدانهم السيطرة على زمام المعركة، التى انتهت بهزيمة قاسية كبدتهم خسائر فادحة. وفى العام التالى (٤٠٣) ألحق ستليكو بالقوط الغربيين هزيمة أخرى مماثلة فى موقعة ڤيرونا Virona فى شمال إيطاليا، جعلت ألاريك لا يستطيع الإفلات من الهلاك إلا بفضل جواده السريع. وكان بإمكان ستليكو أن يقضى على ألاريك آنذاك، ولكنه لم يتعجل الأمر، رغبة فى استخدامه ورقة رابحة فى يده ضد منافسيه فى بلاط أركاديوس، وجرت بينهما مفاوضات انسحب ألاريك بموجبها من إيطاليا عائداً إلى إيلليريا، بعد أن حصل على مبلغ ضخم من المال(٢). والجدير بالذكر أن ستليكو كان الشخصية الوحيدة التى تستطيع إبعاد الخطر القوطى عن إيطاليا، ولكنه كان فى الحقيقة مكروهاً وسط حاشية البلاط

---

(١) Lot, op. cit., p. 69.; Taylor, op. cit., Vol. I., p. 112.

(٢) Bradley, op. cit., pp. 85-88.; Pirenne, op. cit., p. 27.

وموظفيه، لأسباب عدة أهمها سيطرته على الأمبراطور سيطرة تامة وهو الجرماني الأصل، الآريوسي المذهب، ومن المحتمل أنه كان يحلم ببناء امبراطورية يحكمها ابنه. ولذلك دفعت الغيرة القاتلة رجال البلاط إلى التآمر عليه، فأوغروا صدر الأمبراطور هونوريوس ضده، وجعلوا الشكوك تساوره في صحة إخلاصه، مما أدى إلى استياء الأمبراطور من قائده، وجرى اعتقاله وإعدامه بتهمة الخيانة سنة ٤٠٨م(١).

ولاجدال أن إعدام ستليكو قد أزاح عقبة كأداء من طريق ألاريك، في الوقت الذي وجد هونوريوس نفسه وجهاً لوجه أمام الزعيم القوطي، ضعيفاً عاجزاً، تعوزه الشجاعة وروح القيادة. لذلك لم يدع ألاريك الفرصة تفلت من يديه، فدبر لغزو روما، وكان أول ما قام به أن عبر جبال الإلب، ثم استولى على المدن التي اعترضت طريقه في شبه الجزيرة الإيطالية، مثل أكويليا وكونكورديا وكريمونا وغيرها، حتى استطاع أن يضرب خيام معسكره تحت أسوار روما في بداية عام ٤٠٩م. وتلا ذلك أن فرض عليها حصاراً محكماً عنيفاً، أدى إلى نقص الطعام والأقوات، وموت الآلاف من سكانها. ومما زاد من خطورة الموقف أن الأمبراطور العاجز لم يبد أية مقاومة وقتذاك، بل فر إلى مدينة راڤنا، تاركاً المدينة العريقة نهباً لمصيرها، فسقطت في أيدي الزعيم البربري في ٢٤ أغسطس سنة ٤١٠م(٢). وكان من الطبيعي أن يعترى الناس هول وفزع من جراء سقوط مدينتهم الخالدة، وجرى اعتقادهم أن ما حدث لروما هو نذير بنهاية العالم، والقضاء على حضارته. وليس من السهل تصور الانطباع الذي تركه سقوط روما في نفوس المعاصرين، إذ رأوا فيه حدثاً لم تشهده الأمبراطورية الرومانية المتأخرة من قبل، حتى أن القديس چيروم (حوالى ٣٤٠ - ٤٢٠م) بكى في صومعته في بيت لحم البعيدة قائلاً : «لقد انطفأ مصباح العالم، وضاعت

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 204.; Simons, op. cit., p. 37.

(٢) Bradley, The Goths., pp. 91-92.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 85.

الإنسانية كلها بين حطام روما»[١]. وكتب أيضاً : «لقد ارتبك عقلى، وتشتتت أفكارى، حتى أننى نسيت نفسى.. فالمدينة التى امتلكت العالم، وقعت نفسها فى الأسر»[٢]. وترتب على سقوط روما فى أيدى أولئك البرابرة أن صارت فريسة للنهب والسلب، فأحرقت دور الأغنياء، ودمرت الكنوز النادرة، وما أكثر الأوانى الذهبية والذخائر والتحف التى حطمت ببلطة أثناء تقسيم الغنائم والأسلاب بين أولئك الغزاة؛ وترتب على تلك الكارثة أيضاً أن تشتت السكان، فلجأ الكثير منهم إلى الأماكن النائية المنعزلة طلباً للأمن[٣]. وعندما سار وفد من أهل المدينة إلى ألاريك ليسأله عن شروط الصلح، وافق على الانسحاب إذا أعطى كل ما فى المدينة من ذهب وفضة. ولما سأله أعضاء الوفد : «وأى شىء بعد هذا يبقى لنا؟»، أجابهم فى ازدراء : «حياتكم»[٤]. وجدير بالذكر، أن ألاريك رغم أنه كان مسيحياً آريوسيا، إلا أنه احترم الكنائس الكاثوليكية، فلم يتعرض لها بسوء، ولم يمس آثارها وكنوزها. وعلى أية حال، تعتبر هذه المرة هى الأولى التى دخل فيها البرابرة مدينة روما، منذ أن خربت على أيدى هانيبال عام ٢١٦ قبل الميلاد[٥].

ترك ألاريك روما بعد أن نهبها برابرته القساة ثلاثة أيام، صارت خلالها خراباً موحشاً، خالية من ثرواتها وكنوزها. على أن سقوطها فى الواقع لم يعط ألاريك أية ميزة حقيقية، وبعبارة أخرى لم تحقق أحلامه التى سعى إليها فى روما أو إيلليريا من قبل، ففى هاتين المدينتين لم يجد المأوى والاستقرار المنشود لشعبه، ويبدو أنه أدرك ذلك تماما، بدليل أنه قرر الجلاء عن روما، والتوجه إلى أفريقية، بهدف التحكم فى ذلك الإقليم الغنى بالقمح، والعمل على منع إيطاليا من الحصول عليه. وكان أن زحف على رأس قومه، ساعياً إلى هدفه بحماس لا يفتر، حتى بلغ

---

(١) Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 64.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I, p. 85.; Katz, The Decline of Rome., p. 92.

(٢) Baynes, Decay of the Western Power and its Causes., p. 2223.

(٣) موس : المرجع السابق، ص ٨٦ – ٨٧.

(٤) Bradley, op. cit., p. 93.

(٥) Pirenne, op. cit., p. 28.; Cantor, op. cit., pp. 76-77.

الطرف الجنوبى من إيطاليا، وعندما ركب البحر إلى صقلية، هبت عاصفة هوجاء حطمت أسطوله، وأعقب ذلك أن توفى فجأة قبل نهاية عام ٤١٠م فى أبوليا بالقرب من كوتسنزا Cosenza. ولم يرغب القوط الغربيون فى دفن زعيمهم فى مقبرة، شأنه شأن بقية الناس، ولكنهم اعتزموا أن يعطوا جنازته ومراسيم دفنه أنشودة ملحمية، فقاموا بتحويل مجرى نهر بوزنتو Busento وهو نهر صغير فى كالابريا، وأقاموا ضريحه فى قاع النهر الذى خلا من المياه، ودفنوا معه كنوزه وغنائمه، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلى، وحتى لا يعرف مكانه، قام القوط بقتل العبيد الذين كلفوا بأعمال الحفر، حتى يظل قبره سراً غامضاً إلى الأبد(١).

بعد وفاة ألاريك، اختار القوط الغربيون أثولف Athaulf ملكاً عليهم، ويقال أنه فكر فى الإطاحة بالأمبراطورية الرومانية، وإقامة امبراطورية قوطية على أنقاضها، ولكنه لم يلبث أن عدل عن تلك الرغبة، بعد أن تبين له أن القوط الغربيين لا يصلحون ورثة للرومان، لما عرف عنهم من ضيق بالقوانين وعدم الخضوع لها، كما أنه رأى الاستحالة على جرمانى أن ينتزع التاج الأمبراطورى ولقب الأمبراطور الرومانى؛ وكان أن عول فى نهاية الأمر، على وضع قواته وشعبه فى خدمة الأمبراطورية(٢)، متخذاً لنفسه لقب «باعث مجد الأمبراطورية الرومانية» Restitutor Orbis Romani، وفى نفس الوقت استقر رأيه على اتخاذ إقليم الغال وطناً لقومه. وما لبث أن قادهم إلى شمال إيطاليا، ثم عبر بهم جبال الألب إلى جنوب بلاد الغال، حيث صار سيداً لمعظم تلك المنطقة قبل نهاية عام ٤١٣م، بعد أن بسط سيطرته على مدن هامة مثل بلنسية، وبوردو، وناربون، وتولوز التى صارت عاصمة للقوط الغربيين فيما بعد(٣).

---

(١) Bradley, op. cit., pp. 97-98.; Hoyt & Chodorow, pp. 64-65.; Manitius (M.), "The Teutonic Migrations. 378-412.", in Camb. Med. Hist., Vol. I., p. 274.;

جيبون، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية، جـ٢، ص ٢٢٧ – ٢٢٨.

(٢) Bradley, The Goths., p. 100.; Simons, The Birth of Europe., p. 37.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 86.

(٣) Deanesly, A Hist. of Medieval Europe., p. 28.

وفى العام التالى (٤١٤م) عقد أثولف قرانه على أخت الامبراطور الأميرة جالا بلاسيديا Galla Placidia فى ناربون. وكانت تلك الأميرة التي تشع مرحاً وذكاء وحيوية، قد وقعت أسيرة فى يده بعد سقوط روما، وعاملها معاملة طيبة، جعلتها تقع فى حبه، وتقبل الزواج منه. بيد أن قنسطنطيوس قائد الجيش الرومانى الذى خلف ستليكو أعلن معارضته، لأنه كان يود الزواج من بلاسيديا، وزاد من حقده ما لمسه من حرص أثولف علي تأكيد نفوذه وسيطرته فى إقليم الغال. ومن جراء ذلك خرج قنسطنطيوس على رأس جيش ضخم متوجهاً لإقليم الغال لمنع أثولف من تحقيق مآربه، فى الوقت الذى أرسل فيه أسطولاً ضخماً استطاع منع وصول المؤن إلى الموانىء الغالية. ولذلك عندما ضاق الخناق على القوط، وظهر شبح المجاعة فى الأفق، اضطر أثولف إلى التحرك مرة أخرى، باحثاً لقومه عن موطن آخر، فعبر بهم جبال البرانس (البرينيه) إلى أسبانيا[١]، وكان أول ملك قوطى يدخلها.

لم يعش أثولف طويلاً بعد ذلك، إذ اغتيل على يد أحد خدمه فى مدينة برشلونة فى أغسطس سنة ٤١٥م، واختار القوط الغربيون سيجريك Sigeric خلفاً له. فاستهل حكمه بقتل أولاد أثولف، وإلحاق الأذى بالأرملة الشابة جالا بلاسيديا، من ذلك أنه أجبرها على السير بجوار فرسه مسافة اثنتى عشرة ميلاً، ولذلك لم ينعم طويلاً بالحكم، فقد جرى قتله بعد أسبوع واحد من توليته العرش على يد زعيم اسمه واليا Wallia. واستطاع ذلك الزعيم أن يحصل لشعبه بالطرق الدبلوماسية، ما فشل سابقوه من ملوك القوط فى الحصول عليه بالحرب والعداء. ومما يدل على ذلك أنه عقد اتفاقية سلام مع الرومان فى عام ٤١٨م، وافقوا بمقتضاها على استقرار القوط الغربيين فى إقليم أكوتين (أكويتانيا)، وهو يشمل المنطقة التى تضمها فرنسا الحديثة جنوب نهر اللوار، وقد عرفت تلك المنطقة بالمملكة التولوزية، بعد أن اتخذ القوط الغربيون من تولوز عاصمة

(١) Bradley, The Goths., pp. 101 - 103.; Boak (Arthur E.R.), A Hist. of Rome to 565 A. D., (New York, 1930), pp. 378-379.

لمملكتهم، التى تمتعت بالاستقلال الذاتى فى ظل الأمبراطورية[١]. كما وافقت الأمبراطورية أيضاً على مدهم بالقمح، وفى المقابل، وافق القوط الغربيون على أن يكونوا معاهدين (محالفين) للأمبراطورية، وأن ينهضوا بتطهير أسبانيا من جموع الوندال والآلان والسويفى لصالح الأمبراطورية؛ أما الأميرة جالا بلاسيديه، فقد وافق القوط الغربيون على أرجاعها إلى إيطاليا، وهناك أجبرت على الزواج من قنسطنطيوس، رغم بغضها له[٢].

وبعد وفاة واليا فى عام ٤١٩م، انتخب القوط الغربيون ثيودريك الأول The-oderic I ملكاً عليهم. وإبان عهده ظهر خطر الهون بزعامة آتيلا، مكتسحاً فى طريقه صوب الغرب البلاد والمدن، ومخلفاً وراءه الدمار والخراب. وعندما وصل آتيلا منطقة أورليان Orleans، كان يأمل أن يقف القوط الغربيون فى صفه ضد القوات الرومانية، ولكن ثيودريك آثر الانضمام إلى القوات الرومانية وحلفائها، مما أدى إلى رجحان كفة الرومان فى المعركة التى دارت رحاها بالقرب من شالون سنة ٤٥١م، وفيها لقى ثيودريك حتفه كما ذكرنا من قبل. ولم تنقض بضع سنوات حتى صار إيوريك Euric ملكاً على القوط الغربيين فى عام ٤٦٦م، وعلى عهده بلغت مملكة القوط الغربيين ذروتها فى القوة والنفوذ، فقد ازدادت أراضيها اتساعاً لم تشهده من قبل. وبمعنى آخر نجح القوط الغربيون فى توطيد سيادتهم فى الغال وأسبانيا، بحيث صارت فى حوزتهم المنطقة الممتدة بين المحيط الأطلسى وجبال الألب، ومن مضيق جبل طارق حتى أكوتين، فيما عدا إقليم جليقية – فى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا – الذى سيطرت عليه قبائل السويفى الجرمانية[٣].

---

(١) Hoyt & Chodsrow, op. cit., pp. 65-66.; Deanesly, op. cit., pp. 28-29.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 87.

(٢) Deanesly, op. cit., p. 29.; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 454.; Schmidt (Ludwig), "The Visigoths in Gaul, 412-507", in Camb. Med. Hist. Vol. I., p. 278.

(٣) Bradley, The Goths., pp. 116 - 117.

على أن مملكة القوط الغربيين ما لبثت أن تمزقت بعد وفاة ملكها إيوريك سنة ٤٨٥م، لأن خلفاءه كانوا يفتقرون إلى المقدرة والكفاءة التى تميز بها. ولا يغيب عن البال أيضاً أن آريوسية القوط الغربيين كانت حجر الزاوية فى انهيار مملكتهم وتمزقها، فالغالبية العظمى من رعاياهم فى إقليم الغال كانت على المذهب الكاثوليكى المناهض للآريوسية. وإذا تصورنا مدى الكراهية التى تبادلها أنصار المذهبين، لأدركنا أنه كان من المستحيل على أى ملك قوطى أن يحوز رضاء أتباع يعتبرونه هرطقياً فى نظرهم(١).

الوندال : Vandals

ينحدر الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية التى غادرت ساحل البحر البلطى فى وقت سابق على تحرك القوط. وقد ظهروا تاريخياً كإحدى القبائل الجرمانية القوية فى أواخر القرن الأول الميلادى، وذكرهم بلينى (٢٣ – ٧٩م) فى الجزء الجغرافى من مصنفه الموسوعى الضخم «التاريخ الطبيعى» Naturalis Historia باسم vindili، كما ذكرهم المؤرخون الإغريق باسم Bandili أو Bandeli. وقد اتخذوا من الجزء الأوسط والشرقى من بروسيا Prussia موطناً لهم عند ظهورهم تاريخياً، ولكن إقامتهم فى ذلك الموطن لم تدم طويلاً، إذ قامت الحرب بينهم وبين قبائل اللانجوباردى (اللومبارديين) Langobardi، انتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة كما تروى الأساطير، ونزوحهم جنوباً إلى المنطقة الواقعة بين سيليزيا وبوهيميا(٢). وفى أثناء الاضطرابات والفوضى التى أثارتها حرب قبائل الماركومانى حوالى عام ١٦٦م، اتجهت قبائل الوندال الأسدنج (الأسدنجيين) Asdingi التى اشتقت إسمها فيما يبدو من اسم البيت المالك،

---

(١) Ibid., p. 117.

(٢) Hodgkin (Thomas), Italy and her Invaders., Vol. II., (London, 1892), pp. 212-214.;

محمود الحويرى، اللومبارديون فى التاريخ والحضارة، ص ١٥ – ١٧.

صوب الجنوب إلى هنغاريا، على حين ظلت قبائل السيلنج (السيلنجيين) Silingi بسيليزيا، التى يظهر أن اسمها ليس إلا صيغة صقلبية للاسم القديم (سيلينجيا)(١).

وفى القرن الثالث الميلادى بدأت مرحلة جديدة لتحرك جماعات الوندال، هيئت لها الأحوال السيئة التى مرت بها الأمبراطورية آنذاك. فإبان ذلك القرن اختل البناء الأمبراطورى - كما ذكرنا فى مرات عديدة - داخلياً وخارجياً، وتشير الأحوال الخارجية إلى ظهور موجات زاحفة من القبائل الجرمانية، أخذت تضغط على الحدود، التى أمست كحائط هش بنى من الرمال لا يستطيع الصمود أمام ريح القلاقل. على أن ذلك القرن لم يعدم حقيقة بعض الأباطرة الذين حرصوا على إبعاد الخطر الجرمانى عن الأمبراطورية. فعلى سبيل المثال، عندما ارتقى أوريليان عرش الأمبراطورية سنة ٢٧٠م أعطى الكثير من جهده لذلك الغرض، بدليل أنه خلال عودته إلى روما آتيا من جهة الدانوب الأوسط، اضطر إلى العودة إلى بانونيا، ليدفع عنها غارات قبائل الوندال والسارماتيين، واستطاع فعلاً إلحاق الهزيمة بالوندال فى المعركة التى دارت رحاها سنة ٢٧١م(٢). ولم يلبث الوندال أن أرسلوا سفارة للأمبراطور طلباً للصلح، فوافق بشرط أن يحتفظ بأبناء ملك الوندال وكبار نبلائهم رهينة، وأن يمدوا الجيوش الرومانية بألفى فارس كمعاهدين، وفى نفس الوقت تكفل الأمبراطور بمدهم بالمؤن حتى وصولهم إلى الدانوب. وبعد ذلك بسنوات قليلة قام حلف من الشعوب الجرمانية، ضم الألمانى والوندال والبرجنديين بعبور جبهة الراين، والتوغل فى إقليم الغال، بيد أن الأمبراطور بروبس استطاع سحق العديد من الوندال فى عام ٢٧٧م، وأخذ

---

(١) Alföldi (A.), "The Invasions of Peoples from the Rhine to Black Sea." in Camb. Ancient Hist., Vol. xll., p. 139.;

موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٩ - ٩٠.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques, pp. 33-34.; Sinnigen & Boak, op. cit., pp 394 - 395.

أعداداً وفيرة منهم أسرى، ضمهم إلى الفرق العسكرية التى بعث بها إلى بريطانيا(١).

وفى عام ٤٠٠م اكتشف الوندال أن الأرض التى يعيشون عليها على نهر الثيس Theiss (فى هنغاريا) قد ضاقت مواردها بهم، ولذلك اضطر عدد كبير منهم – بقيادة ملكهم جوديجيل Godigisel – إلى مغادرتها، بحثاً عن أراض جديدة تفى بمطالبهم، فى الوقت الذى انحازوا فيه إلى قبائل الآلان. وتحت ضغط الهون آنذاك، اضطر الوندال والآلان إلى الاندفاع غرباً، وبعد أن اجتازوا الدانوب الأعلى، تمكنوا من الاستيلاء على منطقتى رائيتيا ونوريكيوم فى العام التالى (٤٠١م). وهنا نلاحظ أن الأمبراطورية لم تتخذ موقفاً حاسماً حيالهم، بل آثر القائد الرومانى ستليكو مهادنتهم، وإجراء مفاوضات معهم، انتهت إلى اتفاق، قبلوا بمقتضاه أن يمدوه بالمرتزقة(٢). وبعد خمس سنوات (٤٠٦م) تعرضت إيطاليا لغزوة بربرية، قامت بها جماعات ضخمة من القوط الشرقيين وأحلافهم من الوندال وغيرهم، أنزلت بإيطاليا التخريب والتدمير. ولكن ستليكو استطاع هذه المرة أن يلحق بهم هزيمة ساحقة بالقرب من فلورنسة. ولم تكد تمر شهور قليلة على تلك الهزيمة، حتى قامت جماعات من الشعوب الجرمانية، مؤلفة من الوندال الأسدنج، والوندال السيلنج، والسويفى، والآلان، بعبور نهر الراين بالقرب من مينز Mainz فى ٣١ ديسمبر سنة ٤٠٦م، وتوغلت فى إقليم الغال، ناشرة الرعب والدمار فى مدنه، حتى وصل خطرها مشارف جبال البرانس التى حالت ممراتها الحصينة دون توغلهم فى أسبانيا، وبذلك نجت أسبانيا وقتئذ من أعمال التخريب والدمار(٣).

---

(١) Hodgkin, op. cit., Vol. II, pp. 216-217; Lot, op. cit., pp. 33-34.

(٢) Lot, op. cit., p. 69; Manitius, "The Teutonic Migrations", Vol. I, p. 264.

(٣) Lot, op. cit., pp. 70-71; Boak, op. cit., p. 379; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 455; Manitius, op. cit., p. 266.;

موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٩١.

على أن الهدوء لم يلبث أن ساد إقليم الغال، بعد أن عبرت قبائل الوندال وحلفاؤها جبال البرانس سنة ٤٠٩م، وهبطت أرض أسبانيا. وهناك انتشرت بسرعة تدعو إلى الدهشة، حتى وقعت شبه الجزيرة كلها فى أيديها. وعندئذ وجدت الأمبراطورية نفسها عاجزة عن الوقوف أمامها، ولم تجد مفراً من أن تعقد مع تلك القبائل المتبربرة معاهدة، صار زعماؤها بمقتضاها حلفاء Foederati، وفى مقابل ذلك جرى منحها أراض فى شبه الجزيرة للاستيطان، فاستقر الوندال الأسدنج والسويفى فى الجزء الشمالى الغربى من أسبانيا (جليقية) Gallaecia، والآلان فى لوزيتانيا Lusitania، على حين استقر الوندال السيلنج فى الجنوب الشرقى من أسبانيا (بايتيكا) Baetica التى صارت تعرف منذ ذلك الوقت بالأندلس Andalusia نسبة إلى الوندال(١). ورغم أن الأمبراطور هونوريوس – حاكم القسم الغربى من الأمبراطورية – كان مضطراً آنذاك لقبول هذا الوضع فى أسبانيا، إلا أنه فى حقيقة الأمر حرص على عدم التخلى نهائياً عن أسبانيا، ووضع فى حسبانه اغتنام أية فرصة تساعده على التخلص من تلك القبائل التى اتصفت بالوحشية والتدمير، والتى كانت لا تقيم وزناً للسن أو للمقام فى استخدام أنواع الإهانة والتعذيب مع الشعوب التى كانت تبدى أية مقاومة ضدها. وكان أن أتت الفرصة عندما تحالفت الأمبراطورية مع واليا ملك القوط الغربيين فى عام ٤١٦م، واتفقت معه على مهاجمة الوندال وحلفائهم فى أسبانيا وتطهيرها من شرهم. والحقيقة أن موقف الأمبراطورية يستحق أن نتمهل أمامه بالفحص، ذلك أنه كان وسيلة لغاية استهدفت إضعاف القوتين، قوة القوط الغربيين وقوة الوندال، بعد أن بلغت الأمبراطورية درجة من الضعف، صار من الصعب عليها إيقاف الجرمان عند حدهم. وبمعنى آخر آثرت الأمبراطورية اتباع سياسة «فرق تسد» مع أعدائها الجرمان والبرابرة. وتظهر تلك السياسة واضحة عندما نجح واليا فى حروبه التى خاضها ضد الوندال، ففيها انمحى فرع الوندال

(١) Hodgkin, Italy and her Invaders, Vol. II, pp. 222-223; Boak, op. cit., p. 380; Manitius, op. cit., p. 275; Schmidt (Ludwig), "The Visigoths in Gaul, 412-507", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 304.

السيلنج من الوجود تماماً، وضعف شأن الآلان الذين اضطرت بقاياهم إلى الاندماج فى الوندال الأسدنج فى جليقية، ويقال أن ملك الوندال الأسدنج أطلق على نفسه آنذاك لقب ملك الوندال والآلان»[١]. غير أن الأمبراطورية سرعان ما أصابها الفزع من جراء ازدياد نفوذ القوط الغربيين فى أسبانيا، فعمدت إلى إبعادهم عن أسبانيا فى نهاية عام ٤١٨م، بأن منحتهم إقليم أكوتين للاستقرار به. وجريا على سياسة الأمبراطورية مع أعدائها الجرمان، تحالفت مع قبائل السويفى وقدمت لها العون، بهدف القضاء على الوندال والآلان فى جليقية. وكان أن لحقت الهزيمة بهم فى العام التالى (٤١٩م)، وأرغموا على الانسحاب إلى بايتيكا فى جنوب أسبانيا. وتجدر الإشارة إلى أنه رغم الضربات المتكررة التى أكيلت للوندال، إلا أنهم استطاعوا توحيد قواهم من جديد، وأنزلوا الهزيمة بجيش رومانى، حاول استعادة بايتيكا – أو الأندلس – من أيديهم فى عام ٤٢٢م[٢].

ظل الوندال فى الأندلس بعد طول تجوال وترحال، حتى وقع اختيارهم على جزريك الأعرج Gaiseric the Lame ملكاً عليهم سنة ٤٢٨م وهو من الوندال الأسدنج. ويعتبر جزريك (٤٢٨ – ٤٧٧) أعظم رجال عصره من الجرمان، عرف بالذكاء والتقشف والزهد، لايهاب الردى فى القتال، قاسياً على أعدائه، لا تأخذه بهم رحمة ولا شفقة، موهوباً فى المناورات السياسية، الأمر الذى جعل البعض يطلق عليه لقب «بسمارك» القرن الخامس الميلادى[٣]. ومن الأمور التى تدل على ذكائه أن وضع قومه فى أسبانيا شغل جانباً كبيراً من تفكيره، إذ رأى أنها لاتحقق حلماً مثالياً لهم، فضلاً عن أنها لا تصلح مأوى لهم فى المستقبل. ومن ثم أخذ يتطلع إلى أفريقية التى وجد فيها أرضاً صالحة للاستيطان، ذات أهمية تفوق ما كانت عليه أسبانيا آنذاك. ولاشك أن جزريك كان صائباً فى تفكيره، لعدة إعتبارات، منها أن ولاية أفريقية تميزت بخصوبتها ووفرة محاصيلها

---

(١) Hodgkin, op. cit., Vol. II, p. 223; Barker, "Italy and the West." p. 404.

(٢) Lot, op. cit., p. 37; Boak, op. cit., p. 380.

(٣) Hodgkin, op. cit., Vol. II, p. 228.

الزراعية، لاسيما القمح الذى يجرى تصدير كميات ضخمة منه، وهى أيضاً من الناحية الاستراتيجية بمثابة قلعة حصينة، يحدها البحر المتوسط شمالاً، والصحراء جنوباً[١]. ولا يخفى علينا أن الأحوال فى ولاية أفريقية وقتذاك كانت تشجع على غزوها، فمنذ مدة طويلة ترجع إلى أوائل القرن الرابع الميلادى، بلغت فيها الفوضى السياسية والاجتماعية والاختلافات المذهبية درجة لم تشهدها من قبل. ويؤكد ذلك انشغال الكونت بونيفاس Bonifacius حاكم أفريقية فى الحروب الدائرة بينه وبين الأمبراطورية الرومانية فى الجزء الغربى، فضلاً عما كانت تعانيه تلك الولاية من اضطرابات قام بها سكانها من البربر Moorish، فى وقت افتقر فيه بونيفاس إلى القوة الكفيلة بردعهم. كل تلك الاعتبارات دارت فى ذهن جزريك، عندما وضع مشروعه للانتقال إلى شمالى أفريقية[٢].

وأمام تلك الاعتبارات، وتحت تأثير الرغبة فى عبور البحر إلى أفريقية، قاد جزريك قومه فى عام ٤٢٩م، عبر مضيق عمودى هرقل (جبل طارق) وعدتهم حوالى ثمانين ألف، نساء وأطفالاً وشيوخاً وعبيداً، وقد تراوح عدد المحاربين بين ١٢,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ ألف. وسرعان ما وقعت ولاية أفريقية فريسة الغزو الوندالى، واجتاح أولئك البرابرة معاقلها ومدنها التى أخذت تتهاوى الواحدة بعد الأخرى، فيما عدا مدينة قرطاجنة التى حالت أسوارها المنيعة القوية دون الاستيلاء عليها[٣]. ثم واصلت جموع الوندال زحفها شرقاً دون إبطاء، مكتسحة فى طريقها شعوب البربر التى حاولت مقاومتها. ورغم أن جزريك عقد اتفاقية سلام مع الأمبراطورية فى عام ٤٣٥، إلا أنه لم يلبث أن رمى بها عرض الحائط، عندما انقض فجأة على مدينة قرطاجنة فى ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩م، فسقطت فى يده، وأنزل بها من أنواع المهانة والرذائل ما أرضى جشعه وجشع قواته القاسية؛

---

(١) Lot, Les Invasions Germaniques., p. 88.

(٢) Lot, The End of the Ancient World., p. 211; Schmidt, "The Sueve, Alans and Vandals in Spain, 409-429", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 305.

(٣) Lot & Dfister and Ganshaf, Les Destinées de l'Empire en Occident, (Paris, 1940), pp. 55 - 56.

وقد أحدث سقوط تلك المدينة العظيمة التى تلى روما فى المكانة دوياً هائلاً فى الأمبراطورية. وخشية أن تقوم روما بأى عمل حربى ضد الوندال، دفع جزريك بأساطيله، فأغارت على جزيرتى صقلية وسردينيا ونهبتهما، الأمر الذى أجبر الأمبراطور الغربى ڤالنتنيان الثالث على طلب السلام فى عام ٤٤٢م وكان الثمن الذى دفعه نظير السلام فادحاً، إذ اعترف بجزريك ملكاً مستقلاً على أفريقية(١). وهكذا فقدت الأمبراطورية ولاية من أهم ولاياتها، ويعتبر ضياعها أحد العوامل التى أسرعت بالأمبراطورية الغربية إلى التفكك والانهيار، فمن الواضح أن قيام دولة وندالية قوية – مقرها فيما يعرف بتونس الحالية – حرمت الغرب الأوربى من أعظم المناطق الغنية بالقمح من جهة، وجعلت موانىء غرب البحر المتوسط وتجارته تحت سيطرة الأساطيل الوندالية من جهة أخرى(٢).

غير أن فترة السلام بين الوندال والأمبراطورية الغربية لم يكتب لها البقاء طويلاً، فقد استغل جزريك الفتن والفوضى والاضطرابات التى شبت فى الأمبراطورية، إثر اغتيال ڤالنتنيان الثالث فى ١٦ مارس سنة ٤٥٥م. وأرسل أساطيله لشن هجوم على إيطاليا، أسفر عن وقوع العاصمة فى أيدى الغزاة. وقد حاول البابا ليو الأول (٤٤٠ – ٤٦١) أن ينقذ المدينة من الوندال، كما أنقذها من أتيلا قبل ذلك بثلاث سنوات، ولكن محاولته باءت بالفشل. وظلوا بها مدة أسبوعين ارتكبوا فيها العديد من أعمال النهب والسلب والقتل والتدمير، فنهبوا القصر الأمبراطورى، ومعبد الإله چوپتر، والمساكن والكنائس، وانتزعوا الرقائق المطلية بالذهب من أسقف المعابد، واستولوا على التحف الثمينة التى أحضرها القائد الرومانى تيتوس معه من بيت المقدس، والذخائر، والصحاف، والأثاث الفخم(٣).

---

(١) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 63; Lot, The End of the Ancient World., p. 210; Barker, "Italy and the West.", pp. 420-421.

(٢) Lyon & Herbert and Hamerow, A Hist. of the Western World., Vol. I., pp. 100-101; Cary & Wilson, A Shorter Hist. of Rome., pp. 336-337.

(٣) Thompson, op. cit., p. 61; Schmidt, op. cit., p. 305; Barker, op. cit., Vol. I, pp. 420-421.

وبعد أن استباحوا المدينة، وأرضوا نزواتهم ورغباتهم الجشعة، عادوا إلى أفريقية محملين بالغنائم والأسلاب، التى كان من بينها إيودوكسيا Eudoxia أرملة الأمبراطور ڤالنتنيان الثالث وطفلتيها. وقد كان لذلك الحادث وقع سيىء فى قلوب المعاصرين، جعلهم يربطون بين اسم الوندال وبين قطع الطرق واللصوصية والتدمير الوحشى، الأمر الذى أوحى لأحد الباحثين الفرنسيين فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى بابتكار لفظ الوندالية Vandalism فى اللغات الأوربية الحديثة، وجعله مرادفاً للوحشية والهمجية(١). أضف إلى هذا، أن الأساطيل الوندالية دأبت على ممارسة القرصنة البحرية فى غربى البحر المتوسط، فلم تسلم مدن وجزر ذلك البحر جميعاً من إغاراتها المخربة؛ وقد أدرك الرومان فى شرق الأمبراطورية وغربها خطورة انتشار القرصنة الوندالية، فأرسلوا حملات بحرية بغية القضاء عليها، وإعادة الأمن والهدوء إلى مياه البحر المتوسط، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل والخيبة(٢).

على أن مملكة الوندال التى اعتمدت فى قيامها على جزريك اعتماداً كلياً، وظلت باقية تستمد قوتها من قوته، لم تستطع أن تقف على قدميها بعد وفاته فى ٢٥ يناير سنة ٤٧٧م. ويؤكد ذلك ما قامت به قبائل البربر من ثورات على تلك المملكة، انتهت باستيلائهم على الإقليم الواقع جنوب الساحل. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فشل الوندال فى الاندماج – اجتماعياً واقتصادياً ودينياً – مع أهالى البلاد، خاصة طبقة النبلاء الثرية التى أذلوا أفرادها وأذاقوهم فنون التعذيب، رغبة فى اغتصاب ثرواتهم المخبأة، بعد أن صادروا أملاكهم، حتى اضطرت الحاجة بعضهم إلى التسول، وأنزلت البعض الآخر إلى مرتبة العبودية. وأخيراً، لما كان الوندال على المذهب الآريوسى، شأن جميع الشعوب الجرمانية،

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., p. 101; Lot & Dfister and Ganshof, p. 78.

(٢) Dill (S.), Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, (U.S.A., 1966), pp. 16-17; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 68

فقد اتبعوا سياسة دينية متطرفة، أثارت نقمة أهالى البلاد من أصحاب المذهب الكاثوليكى، لاسيما رجال الدين الكاثوليك[١].

البرجنديون : Burgundians

أما البرجنديون الذين عاشوا فى القرن الأول الميلادى بين الأودر والفستولا، فهم أحد الشعوب الجرمانية الشرقية، موطنهم الأصلى شبه جزيرة سكنديناوه، من جزيرة بورنهولم Bornholm التى حفظت اسمهم Burgundarholm[٢]. وقد كتب الخطيب سيدونيوس[٣] عن البرجنديين فى أواخر القرن الخامس بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبعة أقدام، يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ، ويشتهرون بالشراهة فى الطعام، ويتحدثون بأصوات عالية. وهم أيضاً شعب مسالم، على دراية بنظم الشعر، بدليل أن قصائد ملحمة نيبولنج التى ظهرت فى القرن الثالث عشر، مستمدة من قصص ترجع فى أصولها إلى برجنديا فى القرن الخامس أو السادس الميلادى[٤].

وحوالى سنة ١٥٠م نفذ البرجنديون إلى سيليزيا، ثم في حوالى سنة ٢٨٦م، دخلوا وادى المين، ثم شقوا طريقهم إلى نهر الراين، فبلغوه فى نهاية القرن الرابع الميلادى[٥]. وفى عام ٤٠٦م المضطرب العاصف عبروا نهر الراين تحت ضغط جحافل الهون بزعامة أتيلا، واستطاعوا الحصول على موافقة السلطات

---

(١) Schmidt, op. cit., pp. 311-312.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 32-33.

(٣) عاش أبوليناريس سيدونيوس Appollinaris Sidonius فى إقليم الغال، وهو من أسرة رومانية عريقة، دأبت على اعتلاء مناصب إدارية عالية فى الحكومة الأمبراطورية. وقد نال سيدونيوس تدريباً فى تلك المناصب، وتدرج فيها حتى احتل منصباً قريباً للأمبراطور فى روما. ثم استقال من منصبه، وعاد إلى إقليم الغال، حيث شغل منصب أسقف كليرمونت Clermont وهو منصب استغله فى تقديم العون لرجال الدين الذين تعاملوا مع البرجنديين والقوط الغربيين. أنظر :
Sellery & Krey, Medieval Foundations., p. 27.

(٤) Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 30; Cantor, op. cit., p. 119.

(٥) Deanesly, op. cit., p. 30;
موس، المرجع السابق، ص ٨٨.

الرومانية بالإقامة كمعاهدين Foederati فى عام ٤١٣م على الضفة اليسرى لذلك النهر، حول مدن ورمز Worms وسبايير Speyer والمينز؛ وقد أتاح استقرارهم فى تلك الأماكن فرصة اعتناقهم الديانة المسيحية، بيد أن ما قاموا به من إغارات على جيرانهم، وما صحبها من أعمال النهب والسلب، جعلت القائد الرومانى أئتيوس يحرض عليهم جنوده المرتزقة من الهون سنة ٤٣٦م، فاشتبكوا معهم فى معركة عنيفة أنزلت بهم كارثة مدمرة، قتل فيها ملكهم، أما البقايا التى نجت من الهلاك، فقد ولت الإدبار إلى منطقة وادى الرون الأعلى؛ وكان أن سمح لهم أئتيوس فى عام ٤٤٣م بالإقامة كمعاهدين للأمبراطورية فى تلك المنطقة التى عرفت باسم برجنديا حتى يومنا هذا(١). وتجدر الإشارة إلى أن البرجنديين منذ أن انتهى بهم المطاف فى وادى الرون، عاشوا فى سلام مع الرومان، واختلطوا بهم بالتزاوج، وقد أثارت الحضارة الرومانية إعجابهم، وبهرت عيونهم، فأقبلوا عليها، وأخذوا ينهلون من معينها، ويظهر ذلك بوضوح فى مجموعة القوانين البرجنية Lex Burgundionum والتى أصدرها الملك البرجندى جندوباد (٤٧٣ – ٥١٦م) Gundobad، وأيضاً مجموعة القوانين الرومانية البرجندية Lex Romania Burgundionum التى أصدرها ذلك الملك، لمعالجة القضايا المتداخلة بين الرعايا الرومان والرعايا البرجنديين، لاسيما ما تتعلق بالخلافات التى كانت تقوم بينهما(٢).

وفى الفترة المضطربة التى سبقت سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى، تولى حكم البرجنديين ملوك من أسرة جديدة، بعد أن ذبح آخر ملوك الأسرة القديمة على أيدى قبائل الهون المرتزقة فى عام ٤٣٦م، وقد حرص أولئك الملوك بدورهم على التحالف مع روما. ويعطى جندوباد صورة واضحة، لما كانت عليه تلك الفترة من قلق واضطراب. فقبل أن ينفرد بعرش مملكة البرجنديين،

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 207; Dill, op. cit., pp. 16-17.

(٢) Sinnigen & Boak, op. cit, op. cit., p. 488.

حدث نزاع بينه وبين أخيه شلبريك الثانى Chelperic II حول الوصول إلى العرش، انتهى بنفيه إلى روما. ولكن الأحداث سرعان ما تطورت بعد ذلك على غير ما كان يأمل شلبريك، فما اتصف به من صفات الغطرسة، والميل إلى الارتياب والشك، جعلته يفقد حب أهالى برجنديا، الأمر الذى شجع جندوباد على العودة من منفاه. وتلا ذلك نشوب قتال بين الأخوين، انتهى بانتصار جندوباد، وفوزه بعرش مملكة البرجنديين[١]. وقد وصف المؤرخ جريجورى التورى[٢] (٥٣٨ – ٥٩٤) Gregory of Tours فى كتابه «تاريخ الفرنجة» الطريقة البشعة التى انتقم بها جندوباد من أخيه، إذ قام بذبحه بالسيف، وأغرق زوجته بعد أن ربط حجراً حول عنقها حتى لا تطفو على سطح الماء، ثم تلا ذلك بنفى ابنتى أخيه، انتهى مصير كبراهما إلى الانخراط فى سلك الرهبنة، أما الصغرى كلوتيلد Clothilde، فهى التى قدر لها الزواج بعد ذلك من كلوفيس Clovis ملك الفرنجة.

ورغم أن البرجنديين نشئوا على المذهب الآريوسى، شأنهم شأن بقية الطوائف الجرمانية، إلا أنهم – فيما يبدو – احترموا رغبة الإناث فى اعتناق المذهب الآخر المخالف لآرائهم، وهو المذهب الكاثوليكى. وليس أدل على ذلك من أنهم لم يحركوا ساكناً حيال الأميرة كلوتيلد عندما اعتنقت الديانة الكاثوليكية، الأمر الذى كان له بعيد الأثر على مستقبل شعب الفرنجة، بعد أن تزوجت من زعيمه كلوفيس، الذى أعجبته بذكائها وفتنته بجمالها. فإليها يرجع الفضل فى تشجيع زوجها وقومه على اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى. ومهما يكن من أمر، فقد قدر لدولة البرجنديين فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى (٥٣٢م) أن يسدل عليها ستار الانحسار وتذهب إلى حيث لا رجعة من صفحات التاريخ، بعد أن لقيت هزيمة ساحقة على أيدى الفرنجة.

---

(١) Lot, op. cit., p. 246.

(٢) The Hist. of the Franks., p. 274; Dill, op. cit., p. 21.

الألیماني : Alemanni

الألیماني من الشعوب الجرمانیة الغربیة التی واجهت الأمبراطوریة خطرها، وكلمة الألیماني Alemanni (Alemans) مشتقة من التیوتونیة القدیمة ومعناها «كل الناس» و«كل الرجال» All Men، وهو اسم لا یعبر عن قبیلة معینة، ولكنه یدل على مجموعة من القبائل مختلفة فی أنسابها. والجدیر بالذكر أن ذلك الشعب الذی ظل وثنیاً حتی النصف الأول من القرن الثامن المیلادی، لم یكن معروفاً للأمبراطوریة، مثل بقیة الشعوب الجرمانیة الأخری التی عرفتها على جبهتی الراین والدانوب، إذ یرجع ظهوره تاریخیاً سعیاً وراء الطعام، أو السلب والنهب، أو تحت ضغط من الخلف، على عهد الأمبراطور كاراكلا (٢١١ – ٢١٧م) Cara-calla، فی أعداد غفیرة فی شمال جبهة الراین الأدنی فی المناطق المجاورة للولایات الأمبراطوریة، حتی أنه استطاع غزو إقلیم رائتیا Rhaetia (وهو جزء من سویسرا الحالیة)، على أن كاراكلا الذی عرف بمقدرته الحربیة، لم یتمكن من دحر الألیمانی عبر الحدود فقط، بل توغل فی أراضیهم الواقعة بین الماین Maine وألمانیا العلیا ورائتیا، ثم ما لبث أن وجه جهوده نحو تقویة التحصینات الدفاعیة فی تلك المناطق(١). ولم تكد تمر بضع سنوات على وفاة كاراكلا، حتی جدد الألیمانی – وبعض القبائل الجرمانیة الأخری – هجماتهم على الحدود الرومانیة، ووصل ضغطهم إلی حد بالغ الخطورة، اضطر الأمبراطور الكسندر سیفیروس (٢٢٢ – ٢٣٥م) معه إلی قطع حملته ضد الفرس فی الشرق والعودة سریعاً إلی جبهة الراین لقیادة العملیات الحربیة ضد الألیمانی وحلفائهم، بید أنه لم یلبث أن دخل معهم فی مفاوضات، انتهت إلی إحلال السلام بین الجانبین. والواقع أن ذلك التصرف أفقد الأمبراطور احترام قواده، لما رأوا فیه من مذلة واستسلام، ومن ثم قامت ثورة ضده فی عام ٢٣٥ بقیادة ماكسیمینوس Maxi-

---

(١) Bang, "Expansion of the Teutons", pp. 200-201; Cary & Scullard, A Hist. of Rome., p. 497.; Laistner (M.L.W.), Thought and Letters in Western Europe. A.D. 500 To 900, (London, 1957), p. 20.

minus أسفرت عن مصرع الأمبراطور وإعلان ماكسيمينوس أمبراطوراً. مما يجدر ذكره أن ماكسيمينوس (٢٣٥ – ٢٣٨م) كان قائداً حقيقياً، شجاعاً ذكياً، اكتسب محبة جنده، الذين رأوا فيه مثلهم الأعلى، ومما يدل على ذلك أنه لم يرض بما وصل إليه سلفه مع الجرمان، وكان أن بعث الحياة والنشاط فى الجيش الرومانى، ورفع من روحه المعنوية، واستطاع على رأسه أن يتوغل فى بلاد الأليمانى، ويلحق بهم الضربة تلو الأخرى، ويتلف حقولهم، ويخرب مساكنهم. ولاجدال فى أن ما قام به ماكسيمينوس أدهش شعب الأليمانى المحارب، فى الوقت الذى أعاد الأمن والاستقرار لجبهة الراين لفترة تزيد عن عشرين عاماً[١].

أخذ الأليمانى يحومون من جديد حول حدود الأمبراطورية، ويتحفزون للوثوب عليها، حتى سنحت لهم الفرصة فى سنة ٢٥٩م، فتحركوا تجاه وادى النيكر، واخترقوا منطقة الغابة السوداء Black Forest واستولوا على منطقة أكوا أوريلينسس Aqua Aureliensis (بادن – بادن الحالية)، حتى وصلوا أعالى الدانوب، وهنا هاجمهم القائد الطموح بوستوموس Posthumus، وحال بينهم وبين دخول إقليم الغال[٢]. ولكنهم عاودوا الكرة على عهد الأمبراطور جالينوس (٢٦٠ – ٢٦٨م)، فاندفعوا هذه المرة فى أعداد هائلة، كطوفان مدمر، فاجتاحوا سلسلة الحصون الدفاعية، وأصابوا إقليم الغال بخسائر جسيمة، ثم عبروا جبال الإلب إلى سهول لمبارديا فى إيطاليا، واستمروا فى تقدمهم حتى وصلوا راڤنا، وهنا كان لابد من إيقاف زحفهم خشية أن يصلوا روما، فقام الأمبراطور بعمل حربى ضدهم بالقرب من ميلان حوالى سنة ٢٦٨م، لم يضع حداً لعبثهم فى الواقع، ولكنه جعلهم ينسحبون عائدين إلى مواطنهم محملين بالغنائم، وقد رأى الرومان فى ذلك الانسحاب انتصاراً[٣].

---

(١) Universal Hist. of the World., Vol. 4, chronicle XII, pp. 2113-2114; Bang, op. cit., p. 201; Cary & Scullard, op. cit., p. 499.

(٢) Thompson, op. cit., pp. 45-46.

(٣) Universal Hist. of the World., Vol. 4, chronicle XII, pp. 2115-2117.; Robinson, A Hist. of Rome., p. 398.; Lot, Les Invasions Germaniques, p. 33; Cary & Scullard, op. cit., p. 509; Bang, op. cit., p. 201.

وفى أوائل عهد الأمبراطور أوريليان (٢٧٠ – ٢٧٥م) تحرك الأليمانى مرة أخرى فى حشود ضخمة، فاندفعوا خلال جبال الألب الرايتية إلى سهل نهر البو فى شمال إيطاليا، وبعد أن أغاروا وارتكبوا ما ارتكبوه من أعمال النهب والسلب، بدأوا رحلة العودة إلى مقر إقامتهم، غافلين عن الخطة التى تفتق عنها ذهن أوريليان وقتذاك، فقد اندفع كالسهم المارق إلى الدانوب قاطعاً عليهم خط الرجعة، واستطاع سحق طليعة جموعهم شمالى ذلك النهر، فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة جموعهم لاتزال على الضفة الجنوبية للنهر، فأسقط فى يدها، وشلت حركتها، بعد أن أحاطت بها قوات الأمبراطور وجعلتها عاجزة عن العودة. وعندما أحسن الألیمانى بأن خطر الإبادة يتهددهم، دفعهم التشبث بالحياة إلى التحرك جنوباً فى سرعة بالغة تدعو إلى الدهشة والإعجاب معاً. غير أن أوريليان تعقبهم، ودمرهم تدميراً عنيفاً على ضفاف نهر ميتاوروس Metaurus، وهو نفس المكان الذى استطاع فيه من قبل القائد الرومانى كلوديوس نيرو Claudius Nero إحراز انتصار حاسم فى الحروب الهانيبالية منذ خمسة قرون مضت. وتجدر الإشارة إلى أنه خلال تلك الفترة الطويلة لم تجرؤ أية قوة أجنبية على الاقتراب من قلب إيطاليا، مثلما اقترب الألیمانى فى تلك المرة. وقد كان هذا فى الحقيقة مبرراً كافياً لتحرك أوريليان، فضلاً عن شروعه فى بناء سور دفاعى جديد يحيط بمدينة روما(١).

ورغم تلك الضربة القاصمة التى لحقت بالألیمانى على أيدى أوريليان، ومزقتهم شر ممزق، وأطاحت بفلولهم بعيداً إلى ماوراء الحدود، إلا أن خطرهم – فى الواقع – لم ينته تماماً. ويبدو من سياق الأحداث المعاصرة أنهم جنحوا إلى الهدوء فترة أعادوا خلالها قوتهم، وظهروا فى شكل تحالف أقاموه مع الفرنجة. ففى عهد الأمبراطور قنسطنطيوس الثانى (٣٥٠ – ٣٦١م)، اندفع الفرنجة والألیمانى فى أفواج لا تحصى تجاه جبهة الراين فى عام ٣٥٦م، فى وقت هدد فيه الفرس حدود الأمبراطورية من جهة الشرق. ولصعوبة الموقف أدرك

(١) Universal Hist., Vol. 4., Chronicle VII., p. 2119; Thompson, op. cit., p. 46.

قنسطنطيوس حاجته إلى زميل مخلص كفء يساعده فى إدارة كفة شئون الأمبراطورية، وكانت زوجته الأمبراطورة إيودكسيا Eudoxia قد أشارت عليه بتعيين ابن عمه چوليان – الذى صار إمبراطوراً فيما بعد – حاكماً برتبة قيصر، فاستمع إلى رأيها، وعهد إليه حكم إقليم الغال. ومهما يكن من أمر، فقد اخترق الأليمانى حدود الأمبراطورية عند جبهة الراين، وتقدموا مدى أربعين ميلاً فى إقليم الغال. ورغم القوات الصغيرة التى كانت تحت إمرة چوليان، إلا أنه استطاع أن ينتصر عليهم بالقرب من ستراسبورج Strassburg فى عام ٣٥٧م، وتعقبهم عبر الراين، وتمكن من إعادة العديد من الأسرى الذين وقعوا فى أيديهم. وبعد أن رد اعتداءهم، بقى فى إقليم الغال فترة أصلح خلالها الأماكن التى خربها الأليمانى، وأعاد تنظيم وسائل الدفاع عن جبهة الراين، الأمر الذى أكسبه شهرة واسعة آنذاك، أثارت الغيرة فى قلب الأمبراطور نفسه(١).

وفى تلك الأثناء أمكن للأمبراطورية إحكام قبضتها القوية على حدود جبهة الراين ضد شعوب الأليمانى والفرنجة، بفضل أعمال التحصينات التى أقامها الأمبراطور ڤالنتنيان الأول (٣٦٤ – ٣٧٥م)، لاسيما فى المنطقة الممتدة من رائتيا حتى بحر الشمال، واستطاع ذلك الأمبراطور الذى كرس حياته للدفاع عن حدود الأمبراطورية عند جبهتى الراين والدانوب، القيام بحملات ناجحة ضد تلك الشعوب وراء الراين؛ صحيح أنها لم تؤد إلى نتائج حاسمة، ولكنها منحت إقليم الغال فترة من الهدوء والاستقرار(٢). ثم عاد الأليمانى إلى الظهور مرة أخرى على جبهة الراين، وقد شجعتهم الأحوال التى أحاطت بالأمبراطورية فى عام ٣٧٨م، ففى ذلك العام انصرفت همة الأمبراطور ڤالنز إلى مقاومة خطر القوط الغربيين المتفاقم فى البلقان، الأمر الذى أعطى فرصة للأليمانى، انقضوا من خلالها على جبهة الراين. ولكن جراتيان Gratian – ابن أخى الأمبراطور وزميله

(١) Universal Hist., Vol. 4., Chronicle VII, pp. 2194-2195.; Piganiol, L'Empire Chrétien., p. 7; Dill, Roman Society in Gaul., p. 7; Roman Society in the last century of the Western Empire., p. 288.; Previté - Orton, op. cit., Vol. I, P. 51.

(٢) Sinnigen & Boak, op. cit., p. 425.

فى الغرب الأوربى – كان لهم بالمرصاد، فأوقع بهم هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة هرربورج الحالية Horburg فى ربيع سنة ٣٧٨، مكنته من استرداد جبهة الراين، وإيقاف نشاطهم العدوانى لفترة بلغ مداها خمسة وعشرين عاماً[١].

وهنا نلاحظ أنه ابتداء من القرن الخامس الميلادى، تكثفت غزوات الچرمان فى منطقة شمالى الغال الممتدة من اللوار حتى الراين، وقد لعبت قبائل الوندال والآلان والسويفى دوراً بارزاً فى تلك الغزوات، التى بلغت ذروتها تحت ضغط جحافل الهون بزعامة آتيلا فى عامى ٤٠٧ و٤٠٨م. وتغير الموقف فى النصف الثانى من ذلك القرن، إذ تعرض إقليم الغال، من جهتى الشمال والشرق، لغزوات مستمرة واسعة النطاق أشد خطورة وعنفاً قامت بها شعوب الفرنجة والألمانى. والحقيقة أن عين القائد الرومانى القدير أئتيوس لم تغفل عن أطماع تلك الشعوب، بدليل أن موته سنة ٤٥٤م أزاح عقبة كأداء من طريقها، وساعدها على التوسع والانتشار فى إقليم الغال، فاستقرت فى المناطق الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين[٢]، وعلى طول واديا الماين والنيكر، ومنطقة الغابة السوداء.

على أنه لم يقدر للتحالف القائم بين الفرنجة والألمانى أن يستمر طويلاً، فقد انقلب إلى تنافس وعداء بين الفريقين، استطاع الفرنجة أن يخرجوا منه ظافرين. ذلك أن الفرنجة فى أواخر القرن الخامس أخذوا يتوسعون فى إقليم الغال على حساب النفوذ الرومانى، وكان لهذا التوسع أثره فى قيام دولة الفرنجة، التى لعب كلوڤيس Clovis (٤٨٦ – ٥١١م) دوراً هاماً فى ظهورها كما سنرى بعد قليل. وعلى أية حال، فقد بدأ الصدام عندما استهدفت شعوب الألمانى الحصول على مستقرات فى سهول إقليم الغال الغنية اقتداء بالفرنجة، فقامت بغزو ضخم سنة ٤٩٦م[٣]، ثم ركزت أعنف هجوم لها على منطقة كولون

---

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 194.; Piganiol, op. cit., p. 206.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I, p. 53; Bang, op. cit., p. 210; Manitius, op. cit., pp. 252-253.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 123.

(٣) Dill, Roman Society in Gaul., p. 86.

Cologne. وعلى بعد أميال قليلة من تلك المدينة التقى الجمعان – الأليمانى والفرنجة – فى معركة ضارية فى تولبياك Tolbiacum. والجدير بالذكر أنه أثناء القتال الدائر بين الفريقين تعهد كلوڤيس باعتناق الديانة المسيحية فى حالة انتصاره على أعدائه، وكان جيشه قد تعرض لموقف عصيب أول الأمر، كاد أن يسحق بسببه، الأمر الذى يعيد إلى الأذهان الموقف الذى تناولته أسطورة قنسطنطين العظيم فى معركة جسر ملڤيان[١] فى أكتوبر سنة ٣١٢م. وفعلاً أوفى كلوڤيس بعهده، إذ سقط ملك الأليمانى صريعاً فى المعركة، وحلت هزيمة ساحقة بقومه، جعلت الغالبية العظمى منهم رعايا لكلوڤيس، أما بقاياهم فقد اضطرت إلى الانسحاب إلى رائتيا، وتلا ذلك أن دخلت تحت طاعة ثيودريك العظيم (٤٩٣ – ٥٢٦م) ملك القوط الشرقيين[٢]. ولا يخفى علينا أن نجاح الفرنجة فى القضاء على شوكة الأليمانى أسفر عن نتائج بالغة الأهمية، أفسحت المجال لتوسعهم، وتحديد مصير دولتهم ومستقبل الغرب الأوربى.

الفرنجة : Franks

ظهر الفرنجة خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، بنزوحهم فى الحوض الأدنى لنهر الراين فى مجموعتين هما : الفرنجة البحريون أو الساليون Salian Franks أى الذين ينزلون قرب البحر، والفرنجة البريون أو الريبواريون Ripuarian Franks أى الذين يقيمون على شاطىء النهر. وقد درج الجغرافيون الرومان فى ذلك القرن على إطلاق اسم فرانكيا Francia على الإقليم الواقع حول الضفة اليمنى لنهر الراين، الممتد من نيمجين Nimegen حتى كوبلنز Co-blentz، والذى كان يشغله منذ أيام المؤرخ تاكيتوس (توفى حوالى عام ١٢٠م) قبائل السيكامبرى Sicambri والشاماڤى Chamavi، والبروكتيرى Bructeri والشاتى والشاوكى Chauci. وبداية كان ظهور الفرنجة الساليين – وهم أشهر

---

(١) Taylor, Medieval Mind., p. 120.

(٢) Dill, op. cit., pp. 86-87; Gregory of Tours, op. cit., pp. 275-276.

الفرنجة – فى المنطقة الواقعة شرقى نهر سالا (المعروف الآن باسم الايزيل the Issel فى الأراضى المنخفضة)، وهو نفس المكان الذى كان مقراً للسيكامبرى؛ ومن المحتمل أنهم اشتقوا اسمهم من ذلك النهر، بيد أننا نلاحظ أن اسم الفرنجة قد غلب على جميع أسماء القبائل الأخرى أكثر من الساليين. ورغم أن اسم الفرنجة Free - men أو Franks كان مثار جدل وخلاف، فقد جرى الاتفاق على أنه لفظ شائع لتحالف غير مستقر للقبائل المقيمة على نهر الويزر والراين الأدنى، وهس Hesse، وبرونزويك Brunswick، وبين تلك القبائل التى ضمها ذلك التحالف صار الفرنجة الساليون أعظمها شهرة(١). ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى بأنهم الشعب الجرئ السريع الذى لا تلين له قناة، وكانوا يرون فى الشجاعة أسمى الفضائل كلها، ويرددون دوماً أنهم رجال أحرار تجرى النبالة فى عروقهم، ولم يعتبروا أنفسهم برابرة؛ ومن المعروف أن الفرنجة الساليين كانوا طوال القامة، شقر الوجوه، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤسهم، ثم يتركونه يتدلى منها فى شكل أشبه ما يكون بذيل الحصان، وكانوا يطلقون شواربهم، ويحلقون لحاهم(٢).

ويحدثنا التاريخ لأول مرة عن ذلك التحالف تحت اسم «الفرنجة» فى القرن الثالث الميلادى، عندما اجتاحت القبائل التى يضمها ذلك التحالف إقليم الغال سنة ٢٥٣م، وواصلت زحفها جنوباً، فعبرت جبال البرانس حتى الجزء الشمالى الشرقى من أسبانيا، تاركة بصماتها فيما خلفته من حطام وخرائب. وفى تلك الفترة المظلمة من تاريخ الأمبراطورية نجح القواد الرومان فى إيقاع الهزيمة بقبائل الفرنجة، وردها إلى مواطن استقرارها على الويزر والراين(٣). على أن سكوت الفرنجة لم يستمر طويلاً، فقد انتهزوا فرصة ظهور الفوضى والقلاقل التى قامت فى منطقة الراين فى عام ٢٥٩م، بسبب اغتيال ابن الأمبراطور ڤاليريان

---

(١) Dill, op. cit., p. 6; Hodgkin, op. cit., Vol. VII, pp. 3 - 4.

(٢) Simons, The Birth of Europe., p. 35;
ديورانت، قصة الحضارة، مج ٤، جـ١، ص ١٧٩.

(٣) Dill, op. cit., p. 6.

على يد القائد الطموح بوستوموس فى كولون، وبادروا بشق طريقهم مرة أخرى إلى إقليم الغال، وظلوا يتجولون فى أنحائه، ناشرين الفوضى والخراب ليس هناك من قوة تستطيع كسر حدة اندفاعهم، وإيقاف اعتدائهم، فالأمبراطورية كانت غارقة آنذاك فى لجة مشاكلها الداخلية والخارجية. وفى تلك الأثناء اعتلى بروبس Probus – وهو محارب شجاع – عرش الأمبراطورية، ورغم أن فترة حكمه (٢٧٦ – ٢٨٢م) كانت قصيرة، إلا أنها كانت بمثابة شعاع من الضوء ظهر فى تلك الأيام المظلمة من تاريخ الأمبراطورية، بدليل أنه قاد عدة حملات ناجحة فى منطقة الراين، أدت إلى تطهير بلاد الغال من الفرنجة[١]، وأخذ الآلاف العديدة منهم أسرى، وأنزلهم إلى مرتبة العبودية، وقد كتب إلى مجلس السناتو فى عام ٢٧٧م مزهوا بانتصاراته قائلاً : «والآن يعمل البرابرة من أجلكم ويزرعون أرضكم». ويذكر مؤرخ سيرته أنه قام بنقل الآلاف من الأسرى إلى المناطق المهجورة التى كانت تحتاج إلى تعمير، كما أنه أدخل العديد منهم فى الفرق العسكرية، وأرسل بهم إلى بريطانيا وتراقيا وآسيا الصغرى. ورغم ما قام به بروبس فإن خطرهم فى الواقع لم يجتث من جذوره[٢]. وكان أن تحسن الموقف على جبهة الراين تحسناً ملموساً، عندما وصل دقلديانوس إلى عرش الأمبراطورية سنة ٢٨٤، فبفضل جهوده الشخصية ومقدرته الفائقة، أمكن إعادة الاستقرار والهدوء إلى تلك الجبهة، بعد أن كبح جماح الچرمان[٣].

على أن المتأمل في تحركات الفرنجة خلال القرن الرابع يلمس مدى الفارق بينها وبين نظيرتها فى القرن السابق، فقد اتصفت بطابع الاستيطان أو الاستقرار الدائم، بدلاً من مجرد غزو هدفه الحصول على الغنائم المادية. ومما ساعد على ذلك أن القوات الرومانية كانت فى حقيقة أمرها أضعف من أن تستطيع إيقافهم عند حدهم، سواء بطريق القوة أو بطريق الدبلوماسية. ويتضح

---

(١) Bang, op. cit., pp. 201-202.

(٢) Thompson, op. cit., pp. 46-47.

(٣) Universal Hist., Vol. 4., Chronicle XII, pp. 2121-2123.

ذلك من المحاولات التى قامت بها القوات الرومانية فى عامى ٣٤١ و٣٤٢م بغرض الوقوف فى وجه الفرنجة، ولكنها باءت بالفشل، وترتب على ذلك أن عقد معهم الأمبراطور قنسطانز (٣٣٧ – ٣٥٠م) Constans اتفاقية سلام لم تدم طويلاً، ففى غضون عشرة سنوات اقتحمت قبائل الأليمانى والفرنجة جبهة الراين، ثم شقت طريقها إلى إقليم الغال، حيث أخذت مدن ذلك الإقليم الرائعة – مثل كولون وتريف وغيرها من المدن الهامة – تتساقط فى أيديها واحدة بعد أخرى، حتى اضطر العديد من أهلها إلى الفرار. ولم يستطع أحد غير چوليان أن ينقذ موقف الأمبراطورية المنهار فى جبهة الراين، فقد استطاع على رأس قواته فى عام ٣٥٧م – كما رأينا من قبل – أن ينزل الهزيمة بالغزاة، وينجح فى استعادة الضفة الغالية لنهر الراين الممتدة من ستراسبورج إلى كولون. لكنه لم يقم بعمل حاسم فى العام التالى (٣٥٨م)، عندما اكتشفت السلطات الرومانية أن الفرنجة الساليين قد استقروا فى أوقات سابقة فى إقليم الغال فى المنطقة التى يطلق عليها توكساندريا Toxandria (شمال بلجيكا الحالية) داخل الحدود الرومانية، وكل ما فعله هو أن سمح لهم بالإقامة كمعاهدين[١]. ومن الواضح أن مسلك الأمبراطور على هذا النحو، حقق للفرنجة الحصول على أول وطن استقروا فيه داخل أراضى الأمبراطورية؛ وفى ذلك الوطن أخذوا يمارسون الزراعة فى جو مفعم بالطمأنينة، الأمر الذى جعلهم ينهضون بدور حضارى هام فى الغرب الأوربى فيما بعد.

والجدير بالذكر أن العلاقات بين الأمبراطورية وشعوب الفرنجة لم تكن عدائية دائماً، فالكثير منهم كان على صلة طيبة بروما. كما أن البلاط الأمبراطورى قد ازدحم بالشخصيات الفرنجية المغامرة التى علا شأنها منذ أوائل القرن الرابع الميلادى، وتأثرت بالحضارة الرومانية، حتى لم يعد لديها الإحساس بأصلها الفرنجى أو الشعور بالولاء لمواطنيها من الفرنجة، ووصل

(١) Dill, op. cit., p. 7; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 456.; Piganiol, op. cit., p. 78, p. 223.

الأمر بها إلى الوقوف ضد أبناء أرومتهم الذين ظلوا برابرة إذا اقتضت مصالح الأمبراطورية ذلك[١]. وقد تبوأ العديد من الفرنجة مناصب عالية فى الأمبراطورية، فمنهم من وصل إلى قواد فرسان وحكام أقاليم، كما وصل البعض منهم إلى مرتبة القنصلية، والبعض الآخر إلى مرتبة الأوغسطس زميلاً للأمبراطور. وعلى سبيل المثال لا الحصر، وصل ريكومير Richomer إلى منصب القائد الأعلى للجيوش الرومانية فى عهدى جراتيان (٣٧٥ - ٣٨٣م) وثيودوسيوس الأول (٣٧٨ - ٣٩٥)، كما وصل أربوجاستس Arbogastes إلى نفس المنصب، وكان صاحب الفضل فى وصول إيوجنيوس Eugenius إلى عرش الأمبراطورية. ولا جدال أن تلك الأسماء وغيرها معاً، تكشف لنا النقاب عن طموح الفرنجة فى الربع الأخير من القرن الرابع، ذلك الطموح الذى امتد نطاقه إلى قلب الأمبراطورية[٢]، مثلما امتد نفوذهم التوسعى إلى المنطقة الواقعة بين الراين الأدنى والميز والشلد من جهة، وعلى امتداد الموزل الأدنى من جهة أخرى.

وقد ازدادت الروابط بين الأمبراطورية والفرنجة قوة ومتانة منذ القرن الخامس الميلادى، ذلك أنه فى الأيام الأخيرة من سنة ٤٠٦م اجتاحت الجموع الجرمانية والمتبربرة جبهة الراين فى حشود ضخمة لم يسبق لها مثيل، ثم اندفعت إلى إقليم الغال، الأمر الذى جعل الفرنجة يحاربون إلى جانب القوات الرومانية. على أن الفرنجة لم يقفوا جميعاً وقفة رجل واحد فى صف الأمبراطورية، بل هناك من سلك نحوها مسلكاً عدائياً، أملته أحداث الفوضى والاضطرابات التى انتشرت آنذاك. وتؤكد ذلك الشذرات التى حفظها لنا المؤرخ جريجورى مؤلف كتاب «تاريخ الفرنجة» Historia Francorum، فقد روى أن البعض من الفرنجة كان يحارب فى صف الأمبراطورية ضد الوندال والألمانى، على حين كان يقوم البعض الآخر بنهب المدن الرومانية، مثل مدينة تريف التى نهبوها وأحرقوها أربع مرات بين سنتى ٤٠٩ و٤١٥م[٣].

---

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 249.

(٢) Dill, Roman Society in Gaul., pp. 7-8.

(٣) Ibid., p. 8.

ويعتبر شلوجيو Chlogio أول ملوك الفرنجة الساليين فى منطقة توكساندريا ببلاد الغال. وقد نجح ذلك الملك فى التوسع ناحية الجنوب الغربى، فاستولى على كامبراى Cambrai بعد أن أنزل الهزيمة بالقوات الرومانية، ثم واصل نشاطه التوسعى حتى وصل نهر السوم Somme. ولكن أئتيوس أعظم القواد الرومان فى عصره، لم يلبث أن أوقف أطماعه التوسعية، فقد انتهز فرصة انشغال الفرنجة بزواج أحد زعمائهم شمالى ذلك النهر حوالى سنة ٤٤٧م، وانقض عليهم فى سرعة ألحقت بهم خسائر فادحة. ولم يمض وقت طويل حتى توفى شلوجيو فى العام التالى (٤٤٨م) بعد حكم دام عشرين سنة، وأتى من بعده ميروفيتش Merovechus وهو الذى أحاطت به مسحة من الغموض والمعجزات، وسميت باسمه الأسرة الميروفنجية التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١م. وقد شهدت البلاد الغالية إبان عهده الذى تميز بالضعف حدثاً من أهم الأحداث التاريخية، إذ أتت قبائل الهون المتبربرة، تسبقها شهرة من البطش والقسوة، أجبرت العديد من سكان المدن الغالية على الفرار. والمعروف - كما أسلفنا القول - أن بعض القبائل الجرمانية تحالفت مع القوات الرومانية لدفع خطر الهون المشترك، فانضم الفرنجة الساليون أتباع ميروفيتش إلى جانب القائد الرومانى أئتيوس صاحب الدور الهام فى تلك المعركة. ويروى المؤرخ جوردان Jordanes الذى عاش فى القرن السادس الميلادى أن الفرنجة الساليين حاربوا بشجاعة فائقة جديرة بأصلهم، أما فرع الفرنجة الريبواريين فقد حاربوا تحت راية آتيلا زعيم الهون[١].

وليس من شك فى أن الفترة التى أعقبت مقتل الأمبراطور فالنتنيان الثالث سنة ٤٥٥م تعتبر من أسوأ الفترات الحالكة التى مرت الأمبراطورية بها. وخير صورة ترضح ذلك نلمسها فى المصير الذى آلت إليه جبهة الراين وقتذاك : فالفرنجة الريبواريون قد استولوا على ضفتى نهر الراين فى المناطق الممتدة من

(١) Ibid., p. 9.

ليب Lippe إلى لاهن Lahn؛ واستغل البرجنديون فرصة أشتراكهم فى معركة شالون مع الرومان، وأخذوا يتوسعون سلمياً، حتى استقر بهم الأمر سنة ٤٨٦م فى المنطقة الواقعة حول نهرى الرون والساؤون؛ أما القوط الغربيون فقد صارت تحت أيديهم كل المنطقة الواقعة غربى الغال حتى نهر اللوار؛ أما الفرنجة الساليون، فعلى الرغم من الخسائر الفادحة التى لحقت بهم فى معركة شالون، وأضعفت من قوتهم، فقد وصلوا بزعامة شلدريك Childeric عليهم فى عام ٤٥٨م إلى تورناى Tournai (بالقرب من حدود فرنسا وبلجيكا الحالية)؛ وإلى الجنوب من منطقة الفرنجة الساليين نجد أن النفوذ الرومانى لازال قائماً فى منطقة سواسون Soissons يمثله سياجروس(١). ومن المشاهد أن المنطقة الأخيرة ظلت فى أيدى السياجريين باسم روما، وإن كانوا فى الواقع قد استقلوا بها فى زحمة الأحداث التى ألمت بالغرب الأوربى آنذاك(٢). ويمكن القول أن سواسون تعتبر بمثابة جزيرة «رومانية» صغيرة، وسط محيط واسع من الممتلكات الجرمانية فى إقليم الغال.

وعندما توفى شلدريك سنة ٤٨١م خلفه على عرش دولة الفرنجة الساليين ابنه كلوڤيس (٤٨١ - ٥١١م) الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لتلك الدولة. وطبقاً لما أورده المؤرخ جريجورى التورى، تولى كلوڤيس العرش فى السادسة عشرة من عمره، وعرف بمقدرته الحربية، وشخصيته القاسية التى لا تقم للمبادىء الأخلاقية وزنا، الأمر الذى أهله لزعامة جميع قبائل الفرنجة الساليين من ناحية، ووضع اللبنة الأولى فى صرح مملكة الفرنجة الميروفنجية - نسبة إلى جده الأسطورى ميروڤيتش - من ناحية أخرى. وقد حرص كلوڤيس على توسيع رقعة مملكته، فشرع فى عام ٤٨٦م فى الزحف بجيوشه بغية القضاء على سياجروس آخر بقايا النفوذ الرومانى فى سواسون، وفى القتال الذى دار بين الجانبين، لحقت

---

(١) Ibid., pp. 9 - 10.

(٢) Ibid., pp. 12 - 13.

الهزيمة بسياجروس، واضطر عندئذ إلى ترك فلول جيشه فاراً إلى ألاريك الثانى (٤٨٥ – ٥٠٧) ملك القوط الغربيين فى تولوز طالباً الحماية، ولما بلغ كلوڤيس ذلك هدد بشن الحرب على ألاريك إذا لم يبادر بتسليم اللاجىء، ويبدو أن ألاريك لم يكن فى موقف يسمح له بالوقوف ضد كلوڤيس، فأذعن لطلبه، وجرى قتل سياجروس على أيدى كلوفيس، وضم سواسون إلى ممتلكاته[١]. كذلك استطاع كلوفيس أن يزيح من طريقه سيجبرت Sigibert ملك الفرنجة الريبواريين، رغم أن هذا الملك قدم له العون خلال حروبه ضد ألاريك القوطى، وأخضع شعب الأليمانى – فى الألزاس – لنفوذه فى عام ٤٩٦م؛ كما انتصر على ألاريك عند ڤويه القريبة من بواتييه الشهيرة سنة ٥٠٧م، منهياً بذلك حكم القوط الغربيين فى الغال؛ وبذلك يكون كلوڤيس قد حقق الكثير من الانتصارات والأمجاد لقومه، ويكفى أن مااستولى عليه من أراض قبل وفاته، بلغ ما يعادل ثلاثة أرباع إقليم الغال[٢].

على أن أهم خطوة قام بها كلوڤيس هى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكى أو الأثناسيوسى، مخالفاً بذلك جميع الطوائف الجرمانية الآريوسية. وكان كوڤيس قد أقدم – مثلما أسلفنا القول – على الزواج من كلوتيلد وهى أميرة برجندية دانت بالمذهب الكاثوليكى؛ ومهما قيل من أن أسباب اعتناقه لذلك المذهب كان بإيحاء منها، أو أنه استمع لنصيحة رئيس أساقفة ريمس الذى أشار عليه بالتحالف مع الكنيسة الغربية حتى يضمن ولاء شعوب إقليم الغال[٣]، أو أنه تعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره على الأليمانى سنة ٤٩٦م، فالحقيقة

---

(١) Gregory of Tours, op. cit., pp. 273 - 277.; Simons, The Birth of Europe., pp. 58 - 59.

(٢) Hodgkin, op. cit., Vol. III, p. 9; Taylor, op. cit., p. 119', Lyon & Herbert and Ha-merow; op. cit., p. 103.; Schmidt, "Teutonic Kingdoms in Gaul", in Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 286.

فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ٣٦ – ٣٧.

(٣) Painter, op. cit., p. 29.

التى لا مراء فيها أن ذلك كله يعنى أنه صار بطلاً من أبطال الكنيسة الكاثوليكية. وإذا كانت تلك الكنيسة قد وقفت إلى جانبه فى صراعه مع الشعوب الجرمانية الأخرى، فإن الغالبية العظمى ممن يدينون بالمذهب الكاثوليكى قد وقفت إلى جانبه أيضاً، الأمر الذى وطد نفوذه، وأوجد رباطاً وثيقاً بينه وبين رعاياه فى إقليم الغال من جهة، ومكنه من الانتصار على منافسيه من جهة أخرى[١].

---

(١) Taylor, op. cit., p. 20.